

الفصل السادس

أثر الدين على الإنسان فى الدنيا والآخرة

وقد يجدر بنا فى هذا المقام بأن نعرض بشىء من السرد الوجيز للدور العظيم الذى لعبته الديانات والرسالات السماوية والمصطفين لتبليغها لخلاص الإنسان من أغلال التبعية والحدق والضغينة والشور والكرهية والغضب والانغماس فى المتع المحرمة والاتجاه به إلى الإيمان والطهارة والتقوى والنقاء والمحبة والصفاء فتزدهر به حياته ويطيب مقامه فيها وينعم فيه بملكوت الله فى آخرته:

١ - كان "أخناتون" فى مصر القديمة يعلن أن الإله واحد.. ويقاوم تعدد الآلهة وعبادة الأوثان، ويناجى إلهه الواحد - أتون - بقوله:

(.. أنت جميل، وعظيم وملأى ومشرق فوق كل أرض. وأشعتك تحيط بالأرضيين حتى نهاية جميع مخلوقاتك..).

وكان يناده الناس باسم الإله فيقول:

(.. لقد صنعتُ الرياح الأربع، لكى ينفس منها كل إنسان كزميله، وصنعتُ مياه الفيضان العظيمة، لكى يكون للفقير فيها حق كالعظيم.. ولقد صنعتُ كل إنسان مثل غيره من الناس..).

وكان يقول لهم:

(.. إن الصدق جميل، وقيمه خالدة- لا تتكلمن مع إنسان كذباً، فذلك ما يمقته الله.. ولا تفصلن قلبك عن لسانك، حتى تكون كل طرفك ناجحة..).

وكان المفكر المصرى القديم آنئذ يملأ الأرض والبلاد هتافاً يقيم الحق والخير، داعياً للعدل، والاستقامة والمساواة، والرحمة، ومبشراً بالخلود فى الدار الآخرة.

٢ - وقبل الميلاد بثمان قرون، وتحت سفوح الهملايا فى شمال البنغال، كان فتى وسيم الطلعة، ريان الشباب، يرفل فى يكل ما تحفل به الدنيا من مناعم. ومطاعم ومباهج، ومسرات.. وذات يوم.. وهو يمتطى سهوة جواده، مزاولاً نزهته اليومية، أقحم القدر على طريقة بعض نماذج من البشر تنطوى على أسى ممض فاجع.. ولكأنما كان هذا المشهد،

نداء الغيب لـ "جوتاما" أو بوذا كما سيدعى بعد.. ففي أمسية ذلك اليوم، أنفذ في هدوء وعزم، ما أسره في نفسه ضحى.. وفي بهجة الليل، انساب كالأنفاس الوديعه من فراشه الوثير وقصره وديناه الباذخه، وخرج ومعه خادمه، حتى إذا بلغا شاطئ النهر؛ قطع "بوذا" ذوائبه.. وخلق عنه ثيابه المترفة، وما يتحلى به من لؤلؤ وذهب وأعطاهها جميعاً خادمه، وأمره بالعودة، بينما اتخذ سبيله إلى مناسك العابدين، شمال جبال "القنديا". وهناك شق على نفسه، وكلفها من العبادة ما يطيق وما لا يطيق وأسلمها لصيام مرير، وزهاده بالغة. بيد أنه لم يلبث أن اتهم نفسه بقتل نفسه.. ومن ثم فقد شرع يعتدل في نسكه، وفي إخبائه.

وفي ذات يوم.. رن في روعه نفس الصوت الذى رن من قبل في روع أخناتون ومن بعد في روع كونفثسيوس وسقراط.. الإشارة الإلهية.. أو الوحي.. أو الإلهام.. المهم أنه نداء يحس أصحابه أنه قادم من أعلى.. ومن وراء ما يحسون وما يبصرون. وأصغى "بوذا" ثم أصغى، وأصغى؛ وأخيراً، عاد يبيت في الناس حكمته ورؤاه. فماذا كانت هذه الحكمة؟

إننا نستطيع أن نجعلها أو بالأحرى نوجزها في جملة واحدة "أيها الناس، انبذوا الأنانية". إن "بوذا" يهتف بالإيثار وخدمة الآخرين، وهو لا يعتبر نفسه مسئولاً عن أن يعرف كثيراً عن سر الإله.. بل هو مسئول عن أن يعرف كل شيء عن بؤس الإنسان..!! وهو يدعو الناس، لينبذوا أطماعهم، وأنانيتهم كي يجدوا "النرفانا" فى انتظارهم. والنرفانا، عند بوذا هى حالة السمو والصفاء التى يجدها ويبلغها الذين يغادرون أنفسهم سعياً وراء الحكمة والحق والذين يتفوقون على أنانيتهم ويبدلون من نوات أنفسهم فى الخير العام.

(إنكم تجعلون ذواتكم سجوناً ضيقة مظلمة قاتلة، حين تعكفون على أنفسكم وحدها، وتعيشون لأنفسكم وحدها.. وإنى إذ أدعوكم إلى "النوفانا" لأدعوكم فى نفس اللحظة، إلى أن تحطموا عنكم أغلالكم - وتغادروا سجونكم التى تحتويكم داخل ظلماتها: عاونوا الآخرين، وابسطوا إليهم قلوبكم بالمودة، وأيديكم بالإيثار والرحمة..).
بمثل هذا، مضى بوذا يبشر، ويدعو متوسلاً بالمعرفة، وبالأمل مبشراً المصفين إليه ببلوغ نرى عالمهم المنشود.. عالم النرفانا.

٣ - وفى نفس الزمان... كان هناك فى الصين رائد جليل يقول: (.. حياتى هى صلاتى..). إنه "كونفثسيوس".. حصر جهده فى تجديد حياة الناس، وضبط سلوكهم وفق

ما يختاره لهم من عادات . عرف ، وتقاليد . ولقد هجر وظيفته . إلى " دار الحكمة " التي أنشأها في ولاية "لو" . وظل ينضج فكره . ويجمع نفسه . ويحاول اكتشاف دوره . حتى أفضى إلى ما يريد - وهناك خرج إلى الناس بتعاليم ، كل غرضها خلق الرجل النبيل الطاهر العادل نظيف اليد حسن السلوك الأنيق في تصرفاته وفي حركاته السوى في سيره وطريقة نموه وطريقة حديثه .. وفي حياته كلها . وحين يزخر الوطن بهذا الطراز من أبنائه ، يصير قادراً على صنع نفسه بالصبغة التي يريدها له "كونفشيوس" . وحين تنجح التجربة داخل الصين ، تصدر إلى خارجها... وهكذا يقر "كونفشيوس" عيناً ويهدأ بالا بتعاليمه تجاه افتقاد العدالة وفوضى السلوك والنظم التي تؤرقه كثيراً ، والتي قال عنها ذات مرة: (.. إن هذه الفوضى التي تعم الدنيا ، هي الشيء الذي يحتاج إلى جهودى..).

٤ - كذلك كان هناك أنبياء الشرق الأدنى.. يجوبون القفار والنجوع ، هاتفين بالصلاة ، وبالبر ، وبالتقوى وبالتضحية.. منقضين بغضهم الصاعق على الظالم والاستغلال واحتكار الثروات:

(.. من أجل أنكم تدوسون المسكين.. وتأخذون منه هدية قمح.. بنيتم بيوتاً من حجارة منحوتة ولا تسكنون فيها . وغرستم كرماً شهيةً ولا تشربون منها..).

(.. ويل للمستريحين في صهيون.. أنتم المضطجعون على أسرة من العاج... والمتمددون على الفرش ، والآكلون خرافاً من الغنم . وعجولاً من وسط الصيرة... الهادرون مع صوت الرباب ، الشاربون من كؤوس الخمر..).

(.. كرهت أعيادكم . حتى تدعو الحق يجرى كالمياه ، والبر يجرى كنهر دائم..).

٥ - ولا يكاد هذا الهدير يهدأ ويكف ، حتى يجلجل في الأفق . وبين الروابي وفوق السنوح نذير جديد يهتف به "أنشعيا" : (.. مالكم تسحقون شعبي ، وتطحنون وجوه البائسين..؟).

(.. ويل للذين يصلون بيتاً ببيت.. ويفرنون حقلاً بحقل . حتى لم يبق موضع . فصرتم تسكنون وحدكم في شطر الأرض..).

(.. ويل للذين يقضون أفضية الباطل ، وللكتبة الذين يسجلون زوراً . ليصدوا الضعفاء عن الحكم ، ويسلبوا حق بائسى شعبي.. لتكون الأرامل غنيمتهم ، وينهبوا الأيتام..).

يقول الرب: (.. اغتسلوا.. تنقوا.. كفوا عن فعل الشر.. تعلموا فعل الخير ، اطلبوا الحق ، أنصفوا أقضوا لليتم . حاموا عن الأرملة..).

٦ - وقبل الميلاد بخمسة قرون ازدهرت "أثينا" برجلها المضيء، وتحولت بذكائه الثاقب، وروحه الحى، إلى حديقة زاخرة بثمار المعرفة وقطوفها الدانيات.. إنه سقراط أبو الفلسفة، الذى زلزل سكينه العقول الهاجعة بسؤاله الدائبين: كيف..؟ ولماذا..؟ مطلقاً عقله المحمص الجواب، يفض مغاليق الأسرار، ويناقش المسلمات... يواصل تقدمه خطوة، خطوة. وفى الجموع سرغامض يدعوها لتفسح له الطريق، حتى إذا شقها صفيين طويلين، وأشرف على وجودها بادر الوجوه - على سبيل المثال - بسؤال:

- لماذا لا تبحثون عن الخير؟

- لأننا نعرفه، يا سقراط.

- إذن، فلماذا ما دمتم تعرفونه، لا تفعلونه..؟

- أليس يكفى أن نكون خبيرا فى حدقه يا سقراط..؟

- كلا! ليس الخير من يعرفه، بل من يملكه..!!

- ثم إنى أشك فى مجرد خبيرتكم به، ومعرفتكم له.. فهل تعرفونه حقاً..؟

- أجل، أجل. نعرفه كما نعرف أنفسنا.

- إذن، فأنتم تعرفون الغرض الحقيقى لحياتكم..؟

- نعم.. أن نعيش، يا سقراط.

- لكن البهائم تعيش.

- نعيش عيشة سالحة، يا سقراط.

وصاح سقراط وسط لجة من الحبور:

حسن هذا.. حسن كثيراً.. وإذن، تعالوا نعرف ما هى الحياة السالحة.. فعندئذ - فيما

أظن - سنكون قادرين على أن نعرف ما هو الخير. ثم أخذه ما يشبه الرعواء، فحنى رأسه

قليلاً وأسبل جفنيه، وبعد حين عاد إلى وضعه الأول، ليقول لهم:

(.. إنها الإشارة الإلهية تعاودني.. إنها تأمرنى أن أتعاون معكم على معرفة الحق، لأنه

لا سبيل للعمل به قبل معرفته..).

ولقد دفعته هذه الإشارات الإلهية - على حد قوله ووصفه لمن حوله - يجوب شوارع

أثينا وأنديتها آناء الليل وأطراف النهار يناقش الناس فى كل شىء، ويدبر الحوار فى

غير تهيب، حول الألوهية، والفضيلة، ماقنأ الشر والظلم والعدوان منادياً بالحق والخير

والجمال لسمو الروح والعقل والوجدان.. ثم لا يفتأ أن يذكر من حوله بأننا نحمل داخل

ذواتنا شيئاً، هو أئمن ممتلكاتنا.. شيئاً عظيماً وقويماً ينتظر منا أن نعرفه ونجيد معرفته لأننا لسنا هملاً، ولا نتاج المصادفات، بل نحن أبناء مشيئة كبرى خلقتنا لغرض كبير... ونقطة البدء في مسارنا الطويل هي معرفة أنفسنا.

ومضى سقراط خطوات هادئة واثقة خطوة بخطوة يلحق العقل الإنساني، ويهدى القلوب، حتى جاء اليوم الذى شق فيه على مفسدى الأرض تحمل وطأته الجلييلة.. فتقدم بعضهم كى يضعوا الختام اللائق لحياة باهرة، يراد لها من بارئها أن تكون مثلاً يحتذى، ومشعلاً يهدى إلى خير ما فى الحياة من فضائل باقية: الصدق. والبذل والمثابرة.

واجتمع قضاة أئينا ليحاكموا أبا الفلسفة والمفكر العظيم بتهمتى الهجوم على الآلهة وإفساد الشباب وساق الاتهام كل ما استطاع حشده من فنون الإفك وصنوفه.

وتقدم الإنسان الصادق، الباذل، المثابر، وانفجرت شفقاته الغليظتان فى غير بطة هذه المرة.. كأن صاحبهما يعانى شوقاً إلى مصيرد الذى أسماه الناس الموت، وأسماه هو الانتقال، أو السفر.

وفى هذه اللحظات أكثر من سواها، وجد سقراط حقيقته وعرفها فأراد - قبل أن يمضى - أن يلخص للإنسانية كل دوره ومهمته وأن ينفخ فى هذا الدور من روحه الخليق بالخلود ليبقى دوره حياً من بعده. يمشى فى الدروب مثلما كان يمشى.. يتحدث إلى الناس - على مر الزمان - الذين طالما تحدث إليهم.. ملقياً نفس الأسئلة.. ومؤدياً ذات الرسالة التى كان صاحبها يؤديها حياً.

هنالك تقدم فى ثبات وثقة أزعجا خصومه، وقال من ضمن ما قال:

(.. يا قضاة أئينا.. كم كان سلوكى سيئاً، لو أننى عصيت الله فيما أعتقد أنه يأمرنى به، فنكصت عن أداء رسالة الفلسفة، وتوقفت عن دراسة نفسى ودراسة الناس - وفررت مما كلفنى به خشية الموت.. وأنا الذى حين طلب منى القواد فى "بوتيديا" و"دليوم" أن ألزم موضعى لزمته، وواجهت الخطر والموت.

أيها الأئينيون: إنى أمددكم وأحبكم. ولكن لأنى أطيع الله أكثر مما أطيعكم، فلن أدع الفلسفة ما دمت حياً. سأواصل أداء رسالتى. سأدنو من كل من يصادفنى فى الطريق وأهيب به قائلاً:

ألا تخجل يا صاح من إنكبابك على طلب الجاه والثروة. وانصرفك عن الحق والحكمة.. وعن كل ما يسمو بروحك..).

”إن من يحارب مخلصاً فى سبيل الحق، لن يمتد به الأجل إلى حين، ومن أجل هذا، فأنا لا أخاف الموت.. أجل إنى لا أخافه، ولا أعرف طعمه. ولعله شيء جميل. غير أنى على يقين من أن هجران واجبى، شىء قبيح.. ولذا فحين أخير بين الموت الذى يحتمل أن يكون جميلاً، وترك الواجب الذى هو من غير شك قبيح، فإنى لا أتردد فى اختيار الأول فوراً..“.

”إن الخير الأعظم لكم، لهُو أن تتركونى أوصل رسالتى. أما إذا أردتم تبرئتنى على أن أترك البحث عن الخير وعن الحق فسيكون جوابى: أنا شاكر لكم أيها الأثنيون.. ولكنى أوثر طاعة الله الذى أعتقد أنه ألقى على كاهلى هذا العبء الجليل“.

ويحكم على سقراط بالموت.. وتتهيأ له فرصة الفرار والنجاة إذ يخبره تلاميذه وهم يجلسون إليه داخل سجنه بأنهم أعطوا السجنان رشوة وافق بعدها على تهريبه.. وكأنما حسبوا أنهم يزفون إليه بشرى.. وما كادوا يفرعون من حديثهم، حتى مضى على طريقته يفقد رأيهم فى أناة، كأنه معلم فى مدرسة. وقته متسع، وفرصته مواتية..! وليس محكوماً عليه بالإعدام، سيعطى بعد حين قريب كأس السم ليتجرعه، ويسيعه..!!

– ”.. ولكن لماذا أهرب يا- أقریطون- من الموت؟ طبعاً لأظفر بالحياة.. حسن هذا. وإذن فلنبداً أن نعرف الحياة..؟“.

ثم ينتال حديثه الواثق العذب ليخبرهم أن مجرد الحياة، أمر يعنى الرجل العاقل.. وإنما تهمة فقط، الحياة التى تلتزم الصواب. فهل الهروب صواب..؟
”.. ثم كيف أستطيع - يا أقریطون - إذا ارتكبت رذيلة الجبن، أن أتحدث عن فضيلة الشجاعة“..؟! ويقتنع تلامذته. بل يخجلون.. وحين يسألونه، على أى نمط يحب أن يدفن؟

يجيبهم: ”على أى نمط تشاءون. إنكم ستدفنون الجسد وحده. أما الروح. فذاهبة إلى مكان يبعث فيها السرور. هناك بين المباركين..!!.. لن أمكث بعد مماتى“..

وفى الميقات المعلوم. يجات له بكأس صغير، تحمل فى ذؤبها، منيته. فيأخذها بيد ثابتة، ويدفعها إلى فمه... ثم يتمهل قليلاً ريثما يدعو ”اللهم اجعلها رحلة مباركة سعيدة“..

ويتجرع السم ويموت سقراط..! أو على حد تعبيره هو: يموت جسد سقراط..!

لقد كان سقراط، رجل عقل يستعمل عقله فى أوسع نطاق.. ويدعو الناس لاستعمال عقولهم. محتويًا فى ذلك كل ما للعقل من حق فى المناقشة والمعارضة. بل وفى الشك.. ومع

هذا.. فهو يصغى كثيراً لصوت آخر غير صوت العقل. هذا الذى أسماه ”الإشارة الإلهية“ أو ”الإشارة المقدسة“ أى أن الفيلسوف الذى جعل العقل مصدر تفكيره.. قد جعل الوحي أو الإلهام الضاغط موضع احترامه وتبليته، فهو أيضاً يفسر الحياة تفسيراً دينياً، فليست دنيانا هذه هى المنتهى.. بل واحة فى الطريق. وليست نهايته. ويفسر الموت بمثل ذلك، فهو عنده دفن للجسد وحده، أما الروح فلها الخلود فى عالم يسر الصالحين. وهو يحس للموتى قياماً وبعثاً.. ينهضون من قبورهم ليستأنفوا رحلتهم وحياتهم. وهو قبل ذلك يؤمن بألوهية قادرة طيبة، تدعو الناس إلى معرفة الحق وفعل الخير.

إن جميع القيم التى والاها سقراط، وآمن بها وبشر.. كالحق، والخير، والجمال.. لا تزال، وستظل خالدة صادقة، شامخة، لا يزيد العلم إلا ألقاً وقوة. فلم لا يكون الإيمان كذلك، سيما والعلم لم يستطع أن يصل إلى نقيضه بل على العكس فكل ما وصل إليه أكده ما ورد فى القرآن الكريم منذ ما يناهز خمسة عشر قرناً من الزمان.

٧ - والآن اقتربا فى خشوع وتقوى، ويفتح الباب الكبير ليخرج منه إلينا.. وإلى الإنسانية جمعاء أخوان حميدان.. جاء يلخصان دعوة الخير كلها. ويعطيانها فى إطارها الدينى. تعبيره النهائى.. ها هما وقد قدما فى ضياءهما الباهر المسيح عيسى بن مريم ابن الإنسان.. ورسول الله محمد ﷺ رحمة الله للعالمين..

أما المسيح عليه السلام فليخص لنا كل فلسفات المحبة، ودياناتها، ورؤاها.. ويمنحنا إياها فى تركيز حاسم.. ودعوة ميسرة فى سلوك وديع..

وأما رسول الله محمد ﷺ فسينفض عن الإنسان آخر أغلال التبعية، والخضوع، ويعلن فى شمول واع حقيقة التوحيد.. وشريعة الله الوضاعة على الأرض من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وحض على الخير بالكلمة الطيبة والحكمة والموعظة الحسنة.

وهكذا تتلقى البشرية منهما، آخر دروس أعدادها، وتتسلم وثيقة رشدتها، لتمضى بعد هذا فى طريق الحياة شجاعة مبصرة.. تجربة الوحي فى قلبها، ونور العقل فى رأسها.. والصراط المستقيم واضح أمامها والخير كل الخير هدفها.

وفى قرى ظالمة لنفسها، صاخبة شهواتها، سار كل منهما عفا نقياً.. وأمام مكابدات اليهودية التآمرة الغادرة، وقف الرسولان يتحديان رجسها، ويكابدان بأسها!

وأريد للمسيح عليه السلام أن تنتهى حياته الطاهرة على صورة تشيع الأحقاد الملعونة الملتاثرة، لخراف إسرائيل الضالة! وأريد للرسول ﷺ أن تنتهى حياته أيضاً بسبب من

غدر اليهودية المتآمرة دوما على خير الإنسانية فدست امرأة يهودية السم فى طعامه ! وقال "المسيح" حين أحاط به لؤم الكهنة وكيد الكائدين : "اغفر لهم يا أبتاه، لأنهم لا يعلمون ما يفعلون" وقال "الرسول" ودمه يتفجر تحت قسوة الحجارة التى يقذف بها من كل جانب : "اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون". فالمسيح ومثله الرسول صلوات الله عليهما وسلامه ، لم يجيئا ليوقدا شموعهما فى أورشليم وفى مكة وحدهما ، بل جاءا فى مركز الكرة الأرضية ليوقدا شموعهما للعالم كله وللإنسانية جمعاء.

ولقد كانا على وجدان بهذه الحقيقة. قال المسيح عليه السلام : "جئت لأخلص العالم". وقال الرسول ﷺ : ".. إن الله أرسلنى للناس كافة.. وأرسلنى رحمة للعالمين..". ولقد حدث هذا فعلاً ، ولم تبق دعوتهما داخل القرى الصغيرة ، بل فتحت لها أبواب القارات ، ولا تزال الديانتان تعمران الأرض. وهذا شىء طبيعى ، فلأفكار أجنحة تطير بها وقوة على النفاذ والاختراق أكثر مما لأعتى الجيوش.. سيما تلك الأفكار الصادقة الكبيرة التى تحمل أمانى للبشر، وتحقق لهم من احتياجاتهم ما هم إليه مشوقون.

ونفس الصوت الذى سمعه الرسول محمد ﷺ بعد ستة قرون من دعوة المسيح یرن فى روعه رنين الصدق بوحى من العلى القدير هاتفاً :

﴿يَأْتِيهَا الْمَدِينُ ۝١ قُرْآنًا نَزِيرًا ۝٢ وَرَبِّكَ فَكَّرًا ۝٣ وَبِابِكَ فَطَهْرًا ۝٤ وَالرَّجْرَجَ فَأَهْجُرًا ۝٥ وَلَا تَمَنَّ تَسْتَكْبِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرُ ۝٧ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝٨ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠ ذَرَفَ وَمَنْ حَلَقَتْ وَجِدًا ۝١١ وَجَعَلَتْ لَهُ مَا لَمْ مَمْدُودًا ۝١٢ وَبَيْنَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدَتْ لَهُ سَهْبًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِابْتِئَانًا عِنْدَنَا ۝١٦ سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا ۝١٧ إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠﴾ [سورة المدثر].

فإن نفس الصوت قد رن فى روع المسيح قائلاً :

"أنت ابنى الحبيب الذى به سررت.. للرب آلهك تسجد وإياه وحده تعبد".

وليس هناك ذرة من ريب فى صدق الحس الذى تلقى به الرسول ﷺ كلمات ربه. ولا ذرة من ريب فى صدق الحس الذى تلقى به المسيح نداء ربه فليس فى حياتهما أثر - أى أثر - لتصنع أو ادعاء.

حتى كلمة "ابنى" فى عبارة المسيح لم تزغ عن مكانها ، فنحن جميعاً أبناء الله ، بمعنى أننا خلقه.. وأبوتنا لنا لا تعنى تلافى الأبوة الوالدة التى نعرفها "دفاتر المواليد" بل هى

أبوة الخالق الأعظم العلى القدير وها هو الرسول ﷺ يستعمل فى هذا المعنى المجازى نفس التعبير تقريباً فيقول: (.. الخلق عيال الله.. وأحب الناس إلى الله أنفعهم لعياله..) أخرج البخارى ومسلم، بل وسنمعه يقول: ”يقول الله عز وجل: ”لا تسبوا الدهر، فأنا الدهر“.

فهل الله حقاً هو الدهر، بالمفهوم الحرفى لكلمة دهر..؟؟ لا.. وإنما هو سبحانه الدهر.. بمعنى أنه القوة الكبرى المسيطرة والمبتوثة بمشيئتها فى كل مكان وزمان... والتي ينبثق من خلال رحمتها، وقدرتها أسباب الحياة وطاقتها.

وكذلك وصف الله بالأبوة فهو الذى وسعت رحمته كل شىء والتي تشملنا وتسعنا جميعاً بحنانها وبرها وغفرانها.

أجل.. جميعاً.. صالحنا، وطالحنا، قوينا، وضعيفنا.. وفيما وراء هذا، نلتقى بالمسيح. ينعت نفسه كثيراً بأنه ”ابن الإنسان“ بيد أن ”ابن الإنسان“ هذا، لم يعرف فؤاده الذكى أية تخوم فاصلة بين الأب، والرب.. لقد تخطى حدود النسب الأرضى، وجاوزها جميعاً.

حتى أمه، حين يقال له ذات يوم: إنها بالباب تريدك، يجيب: من هى أمى، ومن هم أخوتى..؟؟ ”إخوتى، وأمى هم من يعملون مشيئة الرب“.

والأبوة الإلهية قد وردت فى مواضع من كتب الأنبياء، فجاء فى سفر التكوين أن الملائكة أبناء الله ”وأن أبناء الله رأوا بنات الناس حسنات فاتخذوا منهن زوجات“ (٦ تكوين).

وورد فى كلام موسى عليه السلام أن بنى إسرائيل جميعاً أبناء الله حين قال لفرعون: ”دع ابنى يخرج“ ووردت بهذا المعنى فى كتب أخرى كسفر التثنية حيث جاء فيه: ”أنتم أبناء الله“ (تثنية ١٤) وأشير إلى الشعب كله بأنهم أبناؤه وبناته (٣٢ تثنية).. ووردت كذلك أكثر من مرة فى المزامير حيث قيل: ”قدموا للرب يا أبناء الله“ (٣٩) و”من يشبهه الرب بين أبناء الله“ (٨٩).

وكذلك وردت فى هوشع وجاء فيه من خطاب الشعب: (.. أنتم أبناء الله الحى..).

أما العهد الجديد فمخاطبة الله فيه باسم الأب وردت كما تقدم فى الصلاة التى تبتدئ بدعاء الله ”آبانا الذى فى السموات“ وحيث قال السيد المسيح للتلاميذ: ”إن أباكم واحد هو الذى فى السموات“ وحيث تكلم عن ولادة الروح وولادة الجسد، وكل ولادة للروح فهى بنوة لله ”بالمعنى المجازى“.

لقد نما القيس الإلهي، المعطى لكل إنسان، قد نما في المسيح، وتفوق وانتشر، حتى ملأ وجوده كله، ولم يبصر في ضيائه الباهر سواه.. حتى أمه التي ولدتها، وحتى إخوته. ارتفعت روابطه بهم إلى مستويات عالية من الواجبات العامة الكبيرة التي تجعل من جميع البشر إخوة له، ومن جميع الأمهات أما.. ومن وراء هذا كله، أبرهم السماوي.. ربه الذي أرسله، كما قال هو ليحجر منكسرى القلوب ويطلق الأسارى من القيود. وفي هذا المعنى ومن منطلقه كان يوصى أتباعه وحواريه أن يبدأوا صلواتهم ودعائهم بترديد "آبانا الذي في السموات" ..

وحين نعود إلى الصحراء العارية.. إلى الكهوف والخيام والبادية.. إلى مكة التي تجتمع فيها دنيا الخمر والميسر والأصنام والأزلام.. وصهيل السادة.. وثغاء العبيد.. وصياح المخمورين الذين أضناهم طول السهر في غرف العاهرات نسمع صوتاً جديداً يلقي حديثاً عجباً.. وينصر إنساناً جديداً على خلق عظيم يذرع الوجود في رفق وأناة.. إنه الأمين محمد رسول الله "أجود الناس كفا.. وأجدأهم صدوراً.. وأصدقهم لهجة.. وأوفاهم ذمة.. وألينهم عريكة.. وأكرمهم عشرة" .. إنه قائم بين نفر يصفون إليه هناك.. في ذلك المكان البعيد عن أعين الرقباء يحدثهم عن الله الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد الذي ليس كمثله شيء "والذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف". ويتحلق حوله حراس القديم وعباد الأصنام، فيهمس إليهم: "يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد. ولا أنا عابد ما عبدتم. ولا أنتم عابدون ما أعبد. لكم دينكم.. ولى دين". .. تعايش سلمى يدعو إليه رسول الله للإنسانية جمعاء من منطلق قاعدة من أبرز قواعد رسالته السامية (لا إكراه في الدين. قد تبين الغنى من الرشد..) و.. كل نفس بما كسبت رهينة..).

وهكذا يلتقي "الرسول" بدوره. ويحمل الأمانة الكبرى. ويمضى بها في حذر أول الأمر.. ثم يجهر بها ويصدح حين يقول له ربه الذي اختاره واصطفاه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: ﴿١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسَعَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣﴾ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنكَ يَضِيقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّجِدِينَ ﴿٨﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩﴾ ﴿سورة الحجر﴾.

ولسوف يواجهه من الكيد، ومن العناد ما يزيدُه إصرارًا وعزمًا، ولسوف ينتصر في معركة الإغراء بالملك والمال، انتصارًا نبيلًا، تاركًا كلماته الهادية العظيمة، درسًا في التاريخ للقيم والأخلاق والبيادئ لا يرتجف ضياؤه: (.. والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يقضيه الله أو أهلك دونه..).

سيدعو بالحكمة والموعظة الحسنة... طبقًا لقوله الله جل وعلا:

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿.. أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [سورة النحل]..

فإذا أحاطت به العداوات الباغية في مكة، هاجر بدعوته إلى المدينة. إذا اضطره أعداء الحياة الجديدة الطاهرة، العادلة التي يبشر بها إلى القتال، قاتلهم غير معتد، ولا مسرف.. فإذا أظفره الله بهم أخيرًا سارع إليهم بالنجدة وبالآمن مطمئنًا إياهم بقوله: "اذهبوا فأنتم الطلقاء".

لقد رفض المسيح عليه السلام ملك اليهود، كما رفض الإذعان لإرهاب رؤسائهم، وطلب إليهم أن يخلوا بينه وبين كلمة الله والمرسل من قبل الله عز وجل لتبليغها:

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿.. وَقَفِينَا عَلَىٰ مَا نُرِيهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّورَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّورَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٦﴾﴾ [سورة المائدة].

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ بِبَشْرِكِ يَكَلِّمُهُ مِنهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١٧﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٨﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وُلْدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٩﴾ وَنَعَلِمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّورَةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٢٠﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُزْرِعُ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْقُ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنشِئُكُمْ سَمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيَّنَّتْ يَدَىٰكَ مِنَ التَّورَةِ وَلِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجَنِّتْكُمْ بِآيَاتِي مِن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٢٢﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة آل عمران].

وما الأمر الذى أثار محمد رسول الله تليغته على ملك يحده الشمس والقمر؟
بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿... وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا
أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿١٥﴾ [سورة الأنبياء].

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا شَيْءٌ
﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ [سورة الإخلاص].

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿... وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ [سورة سبأ].

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿... يَأْتِيهَا النَّاسُ آذِكْرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ
مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآذَنُوا تُوقَفُونَ ﴿٢﴾ [سورة فاطر].

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿... يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَابِتْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا
وَلَا يَشْرَفَنَّ وَلَا يَرْزِقَنَّ وَلَا يَفْتَلِنَنَّ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِمَهْتَبٍ يَفْرِسُهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِفُنَّكَ
فِي مَعْرُوفٍ فَبِأَيْهِنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٣﴾ [سورة المتحنه].

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿... يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا
حَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ [سورة النساء].

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿... يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٥﴾ وَدَاعِيًا
إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿١٦﴾ وَيَشْرَأُ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿١٧﴾ وَلَا تُطِيعُ الْكُفْرِينَ
وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أذنُهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٨﴾ [سورة الأحزاب].

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿... وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٧٧﴾ [سورة الأنبياء].
لقد بشر الأخوان المسيح عليه السلام ومحمد ﷺ كثيرًا بثبوت الله.. وخوفًا كثيرًا من
عقابه... وأذنا في الناس بشعائر ومناسك وعبادات ووصايا ومواظب.. وجهتها بعد توحيد
الواحد الأحد. إنها من الإنسان.. الإنسان.. هذا الاسم، ذو الرنين الصادق.. المثير.. هذا
الكائن، الذين أؤتمن على كل أمانات الحياة وواجباتها.. هذا المسافر، الذين لا يضع
عصاه عن كاهله لحظة، والذي يولى وجهه دومًا شطر كمال بعيد.. هذا الإنسان، فى علمه
وجمله.. فى ثرائه وفقره.. فى حريته وأغلاله.. فى تقواه وفجوره.. فى صحته وسقمه..
فى أمله وأمله.. فى عظمته وبؤسه.

لقد أراد العلي القدير من الأخوين أن يبلغا رسالتيهما العظمتين للإنسان ليجعل منه مؤمناً تقياً خيراً صادقاً محسناً طاهراً نقياً يأمر بالمعروف وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى فتزدهر الحياة الدنيا ويطيب فيها مقامه وينعم بآخرفته في ملكوت الله بما عمل في دنياه من أعمال طيبة صالحة محبة في الله وطاعة له.

وأول ما يبهرنا في عنايتهما بالإنسان ذلك التردد المحض لاسمه والحفاية الصادقة به - فالمسيح ينعت نفسه بأنه "ابن الإنسان" ويكررها مراراً وتكراراً ومن ذلك:

(.. إن - ابن الإنسان - لم يأت ليهلك أنفس الناس، بل ليخلص..).

(.. ها نحن صاعدون إلى اورشليم - ابن الإنسان - يسلم إلى رؤساء الكهنة..).

(.. لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان - أتيًا..).

(.. ومن قال كلمة علي - ابن الإنسان - يغفر له..).

(.. إن للثعالب أوجوه ولطيور السماء أو كآراً وأما ابن الإنسان - فليس له أين يسند رأسه..).

(.. لا تعرفون اليوم ولا الساعة التي يأتى فيها - ابن الإنسان..).

(.. إن - ابن الإنسان - ماض، كما هو مكتوب عنه..).

(.. كما فى أيام نوح كذلك يكون فى أيام - ابن الإنسان..).

(.. كذلك يكون - ابن الإنسان - أيضاً لهذا الجيل..).

(.. فاستعدوا أنتم كذلك لأنه فى ساعة لا تخطر لكم يأتى - ابن الإنسان..).

(.. إن ابن الإنسان - نفسه لا يعلم باليوم والساعة..).

ويحدثنا القرآن الكريم المنزل من العلي القدير بالروح الأمين على قلب المصطفى الأمين عليه الصلاة والسلام عن الإنسان. فيعطه صفته الحقّة، كمحور لنشاط النّبى، وأحد أهم الموضوعات لجوهر رسالته:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَن تَقْوِيمٍ﴾ [سورة التين].

﴿..أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانَ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [سورة مريم].

﴿..إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [سورة المعارج].

﴿..إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ﴾ [سورة العلق].

ويقول أستاذنا العقاد رحمه الله فى هذا الخصوص فى مؤلفه "المسيح":

(.. لقد كانت كل أسرة يهودية تتمنى فى ذلك العصر أن يخرج منها المسيح المنتظر، وقد سمي الطفل ”يسوع“ أو ”يهوشع“ على هذا الأمل، لأن الاسم مركب من كلمتين تفيدان معنى سعى ”يهوا“ أو نجدة ”يهوا“ أو خلاص ”يهوا“ فتربى الطفل تربية دينية خالصة، ولا يصعب علينا تعليل سفر الأسرة إلى بيت لحم عند مولده، لأنها تنتظر المعجزة هناك، حيث ورد فى أسفار من النبوءات أن بيت لحم مولد المسيح الموعود، لأنها موطن داود..).

ويقول:

(.. أما ابن الإنسان فقد وردت فى كتب العهد القديم باللغة الآرامية، وباللغة العبرية، وهى بالآرامية ”بارناشا“ من بار بمعنى ابن.. وتاش بمعنى إنسان، وهى بالعبرية ”ابن آدم“ وتطلق فى كلتا اللغتين على الإنسان الخالص أو على الإنسان من حيث هو نوع يقابل أنواع الأحياء وقد وردت تسعين مرة فى سفر حزقيال حيث يخاطب النبى باسم ”ابن الإنسان“.. أما كتب العهد الجديد فقد وردت فى مواضع منها بمعنى الإنسان ومنها قول السيد المسيح فى إنجيل متى كل خطيئة وتجديف يغفر للناس، ومن قال كلمة على ابن الإنسان يغفر له، وأما من قال على الروح القدس فلن يغفر له لا فى هذا العالم ولا فى العالم الآتى..) (١٢).

وقد جاءت مرادفة أحياناً لضمير المتكلم ”أنا“ حين يتكلم السيد المسيح عن نفسه، فجاء فى لوقا ١٢: (”.. كل من اعترف بى قدام الناس يعترف به ابن الإنسان قدام ملائكة الله..“

وجاء فى متى ١٦: (.. أنه لما جاء يسوع إلى نواحي قيصرية فيلبس سأل تلاميذه قائلاً: من يقول الناس أنى إنا؟).

وورد فى مرقس ٨: (.. ثم خرج يسوع وتلاميذه إلى قرى قيصرية فيلبس وفى الطريق سأل تلاميذه من يقول الناس أنى أنا؟). فهى فى بعض الأناجيل مرادفة أو بديل من ضمير المتكلم حين يتكلم السيد عن نفسه.

﴿.. وَإِذَا أَتَمَعْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضْنَا بِجَانِبِهِ.﴾ [سورة الإسراء].

﴿.. فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا.﴾ [سورة الزمر].

﴿.. وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرُ شَيْءٍ جَدَلًا.﴾ [سورة الكهف].

﴿..وَبَدَعَ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دَعَاهُ بِالْخَيْرِ ﴿١١﴾﴾ [سورة الإسراء].

﴿.. إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا

الْإِنْسَانُ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الأحزاب].

ولأن الأخوين بعثا من أجل الإنسان.. كان إنسانين.. كانا رجلين من البشر.. اثنين من عباد الله ومن ألواد آدم الكرام الأخيار المصطفين.. كانا يأكلان الطعام ويمشيان فى الأسواق.. ولم يجيئا ملكين.. لم يجيئا من عالم غير عالمنا، ولا من طبيعة غير طبيعتنا، بل لم يخلقوا فى خلق يغاير خلقنا:

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿..إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ،

كُن فَيَكُونُ ﴿٥١﴾﴾ [سورة آل عمران].

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿فَلَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ لَكُنَّا بِمَثُوبٍ مُّظْمِنِينَ لَزَلْنَا

عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [سورة الإسراء].

هكذا يقول العلى القدير سبحانه، وهو لم ينزل ملكاً، لأن الإنسان الصامد أمام تجربة الحياة.. وحمل أمانة الوجود بعد أن أشفق من حملها، وتنحى عنها خلائق كثيرة كانت تسير معه فى سياق التطور العظيم.. إذن.. الإنسان هذا خليق بأن يتلقى من نفسه الدرس والمثل.. واذن، فلتأته رسله منه..

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ

عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٣١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ

الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٣٢﴾﴾ [سورة التوبة].

ومن هنا يبدأ توقير المسيح ومحمد عليهما صلوات الله وسلامه للإنسان.. يبدأ من إمعانهما الكبير فى توكيد بشريتهما وإعلان إنسانيتهما، ووضع وجودهما- دوما.. ولقد كانا، وهما يرفضان الشطط فى أطرائيهما.. والغلو فى توقيرهما.. إنما يقرران القيمة الحقة للإنسان.. وكأنهما يذكران من يحاول سلخهما من بشريتهما:

”أى مقام هناك أسمى، وأعظم، تريد أن تذهب بنا إليه..؟!.. وماذا فوق الإنسان من

خلق..؟! الملائكة مثلاً..؟!.. إنهم فى خدمة الإنسان الكادح..

وحين أراد الله جل وعلا أن يصطفى لنفسه خلقاء فى الأرض، تعالت ترنيمات الملائكة،

ضارعة مبتهلة أن يكونوا أصحاب الحظ فى هذا الاصطفاء.. لكن الله رفق ”الإنسان“ بعين

حانية، وأشار نحوه في حب غامر وقال: هذا هو الخليفة..
إذن فالإنسانية، هي الجنسية المشرفة التي تحملها المسيح، ويحملها أخوه محمد
رسول الله وهما بها فخورين المسيح يقول ويكرر كثيرًا بأنه "ابن الإنسان" ورسول الله
محمد يقول: أنا بشر مثلكم. ويؤكدان هذا المعنى أكثر وأكثر، حين ينهر المسيح من أطرى
صلاحه فيقول له:

(.. من قال إنى صالح؟! ليس من أحد صالح سوى واحد، هو الله..).
وينهى الرسول ﷺ أصحابه حين يقولون له أنت سيدنا ويقول لهم: "لست سيداً
لأحد، ونما أنا عبد الله ورسوله..".

أكانت هذه المشابهة عفو الصدفة، أم هي ثمرة شيء يشبه القانون العام يضع على
شاكلته هذا الطراز الجليل من الهداة..!؟

لقد كان موقفهما من الإنسان العادى الذى لا حول له من مال. أو جاه، أو منصب،
المستضعف، الذى طالما يتخذ ظهره مرعى لسياط الطغاة.. الكادح، الذى طالما يصطنع عرقه
تبيدًا، يكرعه الجناة..! يبهز الأبواب لقد جذباه لياخذ مكانه فى الصف الأول فى الوقت
الذى ينهالان فيه على كبرياء الأشراف الكاذبة، فيمحقانها محققًا.. ولنبدأ بالمسيح عليه
السلام وهو واقف وسط هالة من صفاء روحه وفى يمينه سفر "أشعيا" يقرأ منه:

.. "روح الرب مسحني، لأبشر المساكين" .. "أرسلنى لأشفي منكسرى القلوب" .. " .."
لأنادى للمأسورين بالانطلاق" .. "وللعمى بالبصر" .. "وأرسل المنسحقين فى الحرية" ..
وهنا أيضًا.. أطل من بين الحشود الحافة حوله ليقول:

"طوباكم أيها المساكين، لأن لكم ملكوت الله".

"طوباكم أيها الجياع الآن، لأنكم ستشبعون".

"طوباكم أيها الباكون الآن، لأنكم ستضحكون".

وفى سخرية ماحقة يبدأ حملته ليقول:

(.. على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون..! فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه

فاحفظوه.. ولكن حسب أعمالهم لا تعلموا.. لأنهم يقولون ما لا يفعلون..).

ونبعث هممة استنكار من جانب السادة ولكنها تتلاشى سريعًا فى خضم الإعجاب
الذى جاء من جانب الحشود ويستأنف حديثه عن أشراف "أورشليم" الممثلين أمامه فى
الكهنة والكتبة والفريسيين فيقول:

(.. إنهم يحزمنون أحمالاً ثقيلة، عسرة الحمل، ويضعونها على أكتاف الناس.. وهم لا يريدون أن يحركوها بأصابعهم.. وكل أعمالهم يعملونها لكي ينظرهم الناس.. فيعرضون عصائبهم، ويعظمون أهداب ثيابهم... ويحبون المتكأ... الأول فى اللوائم.. والمجالس الأولى فى المجامع... والتحيات فى الأسواق.. وأن يدعوهم الناس، سيدى.. سيدى).
ثم يندفع صوته فى هدير حار، ومتوهج... وتتعلق أبصار الجموع بكلماته كأنها الحمى، والنجدة والملاذ:

(.. ولكن ويل لكم، أيها الكتبة والفريسيون المراؤون، لأنكم تغلفون ملكوت السموات قدام الناس، فلا تدخلون أنتم ولا تدعون الداخلين يدخلون..!).
(.. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون.. لأنكم تأكلون بيوت الأراامل، ولعلة تطيلون صلواتكم.. لذلك تأخذون دينونة أعظم).

والتجربة لدى محمد رسول الله ﷺ رائعة وحاسمة.. إذ تشهد فيها الرسول ﷺ نفسه وهو يتلقى من ربه عز وجل خطة العمل والنهج الذى يحدد واجبه تجاه الإنسان العادى البسيط. فعندما أذاع الرسول ﷺ دعوته، اقترب منه الفقراء، والمستضعفون شأن كل دعوة حية، طالعة، فذات يوم، طرق باب الرسول ﷺ مبعوث لأشراف مكة وكبرائها يقول له:

(.. يا محمد، إن أشراف قومك يرون أن يستمعوا لك. ولكنهم لن يجلسوا مع صالحيك مكة وفقرائها.. فإن شئت أن تجعل لهم يوماً. ولأتباعك يوماً..).

والرسول بطبعه لا يحمل فى نفسه، ولا فى تفكيره، ولا فى سلوكه، أدنى اعتبار لمثل هذا التمايز. وهو إذن لا يرى بأساً فى أن يجيب هذه الرغبة حتى يريح الإيمان والفضيلة، تلك النفوس الشاردة، وعندئذ سيبحث هؤلاء أنفسهم عن الفقراء والصعاليك ليجالسهم، ويزاملهم بعد أن تلين قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ويطلب الرسول ﷺ إلى الرجل أن يعود إليه فى غد، حيث يكون قد فكر فى الأمر.. أو يكون قد جاءه من الله وحى، وفى غد يرجع مبعوث الأشراف فى ميعاده، ليتلقى من الرسول ﷺ رفضاً أكيداً.. فماذا حدث..؟ لقد جاءت كلمات الله تحمل للرجل العادى البسيط الفقير أعظم تكريم. ألم يكن السادة يريدون لأنفسهم مجلساً غير مجلس الناس العاديين..؟؟.. لا.. لن يكون لهم ذلك أبداً.. فقد حسم الوحي ذلك بقوله جل وعلا:

﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ. وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ

تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا نُطِيعُ مَنْ أَغْوَيْنَا قَلْبُهُ، عَنْ ذِكْرِنَا وَأَتَمَّعَ هَوْنَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا ﴿٢٨﴾ [سورة الكهف].

ولو أمعنا النظر كبشر.. فى رغبة السادة هذه.. نجد أنها لو تحققت.. فقد لا يترتب على تحقيقها ضياع حق للآخرين.. ثم أنها قد تقضى بقوم ضالين إلى الهداية والخير.. وعلى الرغم من هذا؛ يرفضها العلى القدير فى حسم، ويعتبرها من زينة الحياة الدنيا التى لا ينبغى لرسول أن يريدها..! إن روعة هذا المشهد تتمثل فى الكشف عن مكانة الرجل العادى فى عين الله.. وفى تبيانها غيرة الله على ذل الإنسان العادى أن الله سبحانه وتعالى، ليجعله موضوع وصية مفعمة بالحنان مترعة بالمحبة لكل الإنسانية حين يقول لرسوله:

﴿.. وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الكهف].

ويعتبر الله عز وجل التمايز طرداً لهم وظلماً فيقول للإنسانية جمعاء من خلال رسوله ﷺ:

﴿.. مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَنْظُرُهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة الأنعام].

ويسير الرسول وفق هذا التعليم السديد الرشيد العظيم. فلا يكاد يبصر الناس العاديين البسطاء هؤلاء قادمين نحوه فى أى ساعة.. فى أى يوم.. حتى يتلقاهم بحفاوة ويبسط لهم رداءه ليجلسوا فوقه ويقول: أهلا بمن أوصانى بهم ربى.

وذات يوم يمر به رجل بادى الفقر والمسكنة فيسأل النبى ﷺ جلساءه: "ما تقولون فى هذا؟" فيجيبون: "هو والله خليق إن خطب ألا يزوج - وإن تكلم ألا يصغى إليه".

ويصمت الرسول ﷺ حتى يمر رجل آخر عليه مخايل النعمة ومظاهر الثراء.. فيسألهم: ما تقولون فى هذا..؟؟ فيجيبون: هو والله حرى إن خطب أن يزوج وإن تحدث أن يستمع له... فقال لهم الرسول ﷺ:

"والذى نفسى بيده إن الأول لخير ملء الأرض من مثل هذا".

"هنا رسول، يحرق قيمة الإنسان من الزيف، والزور. يحرقها من الأوضاع الكاذبة المقتلة، ويردها إلى مكانها الحق، فى جوار الخير، والعدل، والحق.. ولا يترك الرسول فرصة لتكريم البسطاء والبؤساء إلا أهتبلها. ويقف بين يدي الله داعياً صارعاً:

(.. اللهم أحيى مسكيناً، وأمتنى مسكيناً، وأحشرنى فى زمرة المساكين..).
وإذا كانت الجنة تمثل فى دينه ودعوته، أرفع المثوبات، وأبقاها، وأقصى الدرجات
العلي، وأسماها فقد أراد عن هذا الطريق، أن يكرم البسطاء والمساكين والمعوزين.. تكريماً
يجعل الأشراف والسادة يتظامنون، ويتمنون لو لم يكونوا أشرافاً أو سادة.. ماذا قال الرسول
ﷺ فى هذا المقام قال:

(.. قمت على باب الجنة، فإذا عامة من دخلها المساكين..).
وهو يبحث دومًا عن البسطاء والبؤساء والضعفاء ليجالسهم ويقول: "أبغونى - أى اطلبوا
لى - ضعفاءكم".

ثم يقرر الصفة الاجتماعية لهم، وكيف أنهم الكادحون، والمنتجون للثروة، وللدخل
القومى.. فيقول: (.. إنما تنصرون، وترزقون بضعفائكم).

والرسول ﷺ حين يستعمل كلمة "مسكين" وكلمة ضعفائكم لا يعنى بالمسكنة الهوان..
ولا يعنى بالضعفاء العجزة. وإنما يعنى الناس البسطاء الذين يأخذون فى الكادر الاجتماعى
مكانًا بسيطًا متواضعًا.. ولم يقتصر تكريم الرسول ﷺ للإنسان البسيط على تمجيده وتمجيد
تواضعه، وحياته العاملة المتعفة.. بل شاركه هذه الحياة..

هذه بعض ملامح الاهتمام بإنسانية الإنسان العادى البسيط وتوقيره وسمو أحاسيسه
وروحه.. فى كل من المسيحية والإسلام.. ولا ريب فى أنه يوجد بين الأديان السماوية
مساحات اتفاق كبيرة مشتركة فكلها على سبيل المثال تؤكد على أتباعها الإيمان بالإله
الواحد وتحرم على أتباعها القتل والزنا والسرقه والكذب.. والاعتداء على الأرض والعرض
والمال والشرف.. الخ.. إلا أن تميز أتباع اليهودية بالعنصرية البغيضة المتزمتة وجهودهم
على النصوص والألفاظ إلى أن تحجرت الأشكال والأوضاع فى الدين والاجتماع وغلبت
المظاهر على كل شىء إلى أن وصل الأمر إلى اعتبار أن الوصايا العشر تسرى عليهم فقط
دون البشر.. لأن هؤلاء البشر خلقوا فى أشكال آدمية فقط لخدمتهم وأن إلههم هو إله
لبنى إسرائيل فقط وأنهم أبناؤه وأحبائه فقط دون باقى البشر.. فحولوا الدين إلى دنيا،
كل معنى الحياة عندهم فيها سمت وزينة وأبهة ومحافل وشارات وطغيان واستبداد.. دنيا
آفتها مظاهر الترف ومظاهر العقيدة الموظفة لخدمة ظلمهم ومطامعهم ومن وراء ذلك باطن
هواء وضمير خواء.. كل هذا جعل مساحات الاتفاق بين المسيحية والإسلام كبيرة وجعلت
المسيحية أقرب بكثير إلى الإسلام.. خاصة فيما يدور حول إنهاض الإنسان وسمو نفسه
وضميره وتكريمه وتحريره من نمو غائبيته.

إلا أنه يظل للإسلام دومًا ما يتفرد به عن كافة الأديان والرسالات الأخرى باعتبار أن الرسالة المحمدية هي الرسالة الخاتمة المصححة والمتممة لكافة الرسالات وما يدور حولها من مذاهب فكرية أو فلسفية

ومن بعض هذه الانفرادات وأهمها:

١ - الإيمان بالله الواحد الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد:

فمن جوف بلاد القبائل والعشائر وتخبط الفرق الكتابية التى كانت تعيش فيها فى معتقداتها خرج الدين المصحح المتمم الذى يدعو إلى إله واحد أحد "رب العالمين" ورب الأمم الإنسانية جميعًا بغير فارق بينهم غير فارق التقوى والإيمان والعمل الصالح.. فقد جاء الإسلام بالدعوة إلى إله منزه عن أى لوثة شرك منزه عن جهالة العصبية وسلالة النسب، منزه عن التشبيه - فالله الذى يؤمن به المسلمون إله واحد أحد لا شريك له ﴿سُبْحٰنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (سورة التوبة).

وما هو برب شعب بعينه دون سواه ولكنه ﴿رَبِّ الْمَلٰٓئِكَةِ﴾ (سورة الفاتحة).

٢ - الجهاد فى سبيل الله:

فالإسلام دين يفرض على معتنقيه إفشاء السلام فى العالم وإلى الاعتدال وعدم الغلو أو التطرف فأصل العلاقة بين الناس فى دستور الإسلام علاقة السلم والأمن والأمان.. وتجنب نزغ ووسوسة وخطوات شياطين الجن والإنس التى توسوس فى صدور الناس لدفعهم إلى التنافر والتناحر والبغض والاقتيال:

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿.. يٰٓأَيُّهَا الَّذِيْنَ ءٰمَنُوا اَدْخُلُوا فِى السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوٰتِ الشَّيْطٰنِ اِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِيْنٌ﴾ (سورة البقرة).

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿.. وَاِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ﴾ (سورة الأنفال).

ومن الأخطاء الشائعة عن الجهاد فى الإسلام والتى يروج لها كثيرًا خصوم الإسلام وأعدائه سواء عن سوء فهم أو سوء قصد هو انحصار الجهاد فى الإسلام فقط على الجهاد بالسلاح لحماية العقيدة والنفس وئمال والعرض، فى حين أن الحقيقة الأهم التى يغفلها خصوم الإسلام هي أن رهبانية الأمة الإسلامية هي فى جهادها لإصلاح الكون وعمارته جنبًا

إلى جنب مع نشر الدين بسماحته وعدله.. خاصة أن للإصلاح فى الرؤية الإسلامية منهاج متميز عن نظائره فى كثير من الأنساق الفكرية والفلسفات والحضارات التى انتشرت وسادت خارج إطار الإسلام.. فالإصلاح الإسلامى ليس تغييراً جزئياً ولا سطحياً، وإنما تغيير شامل وعميق يبدأ من الجذور ويمتد إلى سائر مناحى الحياة.. كما أنه لا يقف عند ميادين الحياة الدنيا، وإنما يجعل من صلاح السبيل أساساً إلى الصلاح والسعادة فيما وراء هذه الحياة الدنيا والانتقال إلى الحياة الآخرة. والإصلاح لا يقف عند "الفرد" كما هو الحال فى المذاهب "الفردية" كما أنه لا يهمل الفرد، مركزاً على الطبقة كما هو الحال فى كثير من المذاهب والفلسفات الاجتماعية اليسارية - الوضعية والنادية - وإنما يبدأ الإصلاح الإسلامى بالفرد ليكون منه الأمة والجماعة.. لأن صلاح الفرد هو الذى يؤهله للقيام بالفرائض الاجتماعية والمشاركة فى العمل العام.. الذى تعود ثمراته على الجماعة المكونة للأفراد - بل لقد رفع الإسلام مقام التكليف الاجتماعية فوق مقام التكليف الفردية، عندما جعل إثم التخلف عن التكليف الفردى مقصوراً على الفرد وحده بينما إثم التخلف عن التكليف الاجتماعى شامل للأمة جمعاء.. بل ورفع الله عز وجل فى الإسلام ثواب التكليف الفردية إذا هى فى جماعة واجتماع.. ولهذه الحقيقة. كانت رهبانية الإسلام هى الجهاد.. أى بذل النفس واستفراغ الجهد والطاقة فى أى ميدان من ميادين العمل الصالح فى الحياة الدنيا.. وجعل المولى عز وجل ذلك أساساً للحساب والثواب والعقاب فى الحياة الآخرة..

ولقد سمى الرسول ﷺ جهاد النفس هذا بالجهاد الأكبر.. عندما كان يعود منصوراً بإذن الله من قتاله مع الكفار والمشركين فيردد (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر..)، فالجهاد ليس العمل القتالى وحده.. والرهبانية فى الإسلام هى أساساً لمحو العزلة الفردية التى تدير ظهرها للأمة والاجتماع والصالح العام.. وإعلاء لمقام الإصلاح - بهذه المعنى - فى الإسلام قد ورد فى القرآن الكريم باعتباره "سنة" من سنن الله سبحانه وتعالى - وقانوناً من قوانين الاجتماع الحضارى لا تبديل له، ولا تحويل.. فالتغيير الإصلاحى لا بد له من أن يبدأ من "الذات" ليشمل الذوات، وسبحان من أنزل هذا الكلام:

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ذَلِكَ يَأْتِكُ اللَّهُ لِمَ بِكَ مُغَيَّرًا نِعْمَةً أَعْمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٧﴾ [سورة الأنفال].

لأن الإصلاح سنة لها قوانينها كانت له "دورات تصل ما انقطع وتجدد ما رث وقدم، وترتفع بالأمة والحضارات من التراجع والانحطاط، فتعيدها إلى دورات التقدم من جديد..

أما ما يروج له أعداء وخصوم الإسلام من أن الجهاد فى سبيل الله فى الإسلام ينحصر فى الجهاد القتالى وعزوا انتشاره فى صدر الدعوة المحمدية إلى قوة السيف.. وهو قول قد يصح فى هذا الدين إذا أراد قائله بأنه دين يفرض الجهاد ومن أنواع هذا الجهاد.. الجهاد بالسلاح.. ولكنه خطأ بين وجرم إذا أريد به أن الإسلام قد انتشر بحد السيف أو أنه يضع القتال فى موضع الإقناع.. فما كان للإسلام يومئذ من سيف يصل به على أعدائه سواء من أهل الجاهلية فى الجزيرة العربية الذين كانوا يتميزون بشدة البأس فى القتال، أو من أعتى إمبراطورين فى التاريخ.. الرومانية والفارسية.. كاننا تحيطان به، بل كان المسلمون فى صدر الدعوة هم ضحايا السيف وطرائد الغشم والجبروت.

وحتى المارك التى قاتل فيها المسلمون دفاعاً عن دينهم وأنفسهم وأرضهم وهم قليلى العدد والعدة والعتاد لم يكن النصر فيها حقيقة الأمر يعزى إليهم.. رغم شجاعتهم وفدائيتهم وبسالتهم فى القتال.. وإنما لعون الله عز وجل ومدده لهم.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَنْ يَكُنَّ اللَّهُ رَحِيمًا﴾، كما أن عدد المسلمين اليوم بين أبناء الهند وباكستان وبنجلاديش وأندونيسيا ودول جنوب شرق آسيا والصين.. والقارة الأفريقية ليلبغ تسعة أعشار المسلمين فى العالم أجمع.. وما روى لنا التاريخ من أخبار فتوحات استخدم فيها السيف فى هذه البلاد التى يعيش فيها مئات الملايين من المسلمين.. وإنما هو شمول العقيدة دون غيره هو العامل الذى يجمع إليه النفوس ويحفظ لها قوة الإيمان ويستغنى عن السيف وعن المال فى بث الدعوة كلما فتحت أبوابها أمام المدعويين إليها بغير عائق من سلطان المتسلطين.

والجهاد فى الإسلام بالسلاح يفرض على المسلم إذا ما اضطر إليه اضطراراً حتمياً لا مناص منه دفاعاً عن دينه إذا ما تم الصد عنه أو عن التعريف به والدعوة إليه.. أو عن النفس والعرض والمال والأرض.. حينئذ يكون الجهاد واجب على المسلم وجوباً لا هوادة فيه.. ولكن مع وجوبه فإن المسلم مأمور بأن يكتفى من الحرب بالقدر الذى يكفل له دفع الأذى، ومأمور بتأخيرها ما بقيت له وسيلة إلى الصبر والمسالمة ويتكرر هذا الأمر كلما تكرر الإذن بالقتال للدفاع عن النفس. وكل تحريض أمر به ولى الأمر فى هذا الخصوص ينبغى أن يستمد من التعاليم الإسلامية والنصوص القرآنية التى تشترط فى التحريض على تجنيد الجند، وحض العزائم بأن لم يبق لولى الأمر محيد عن هذه الحرب، وأنه لا غرض له منها إلا أن يكف بأس المعتدين على دينه أو على قومه، كما أنه ليس لولى الأمر إكراه على متطوع لقتال أو نجدة وإنما الحض فقط. وهذا هو موضع التحريض فى قوله عز وجل:

تحريم الإكراه في الدين. لقوله سبحانه وتعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة].

ومتى وقعت الحرب بالأسباب التي شرعها الإسلام فلا قتال لأحد غير المقاتلين، وعلى المسلم المقاتل أن يلتزم بأخلاق الفروسية بالحرب وأن يتبع وصايا الرسول في هذا الأمر والتي تخلص كما أجملها الخليفة أبوبكر الصديق رضى الله عنه في العبارات التالية:

(.. ألا تخونوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة، ولا بقرة، ولا بعيراً.. وسوف تمرن بأقوام قد فرغوا أنفسهم للصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له..).

فهل هناك قتال حوى قيماً ومبادئ تحفظ للإنسان دينه وكرامته وعرضه وسلامته أشرف من هذا القتال؟! وإذا ترتب على ذلك أو أثره سلام فهل يوجد سلام في العالم قام على العدل وحفظ كرامة الإنسان ودينه وماله وعرضه أروع من هذا السلام؟!.

٣- الشورى وديمقراطية الإسلام:

لا ريب أن أسمى ما يمكن تعريف الديمقراطية الإنسانية به والمقصود منها إنها الحقوق المعترف بها للإنسان لكونه فقط إنسان. وأنها ليست خطأ عملية يوجبها تكافؤ القوى بين الطوائف وجماهير الناخبين كما يتشدد بذلك الكثير من مدعيها ورافعي لوائها.. وترتيباً على ذلك فإنه لا يمكننا تصور قيام هذه الديمقراطية الإنسانية بغير عناصر ثلاث لا انفصال أو انفصام بينها:

(أ) المساواة والمسئولية الفردية.

(ب) قيام الحكم على الشورى.

(ج) دستور معلوم من الحدود والتبعات.

وهذه العناصر الثلاثة قد أقرها ونادى بها الإسلام لأول مرة في التاريخ الإنساني.

فلقد قال الله عز وجل:

﴿... يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [سورة الحجرات].

وقال جلا وعلا: ﴿كُلُّكُمْ لِرَبِّهِمْ كَاسِبٌ رَهِيْنٌ﴾ [سورة الطور].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُرَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الشورى].

ونبى الإسلام هو القائل صلوات الله وسلامه عليه:

(.. لا فضل على عجمي ولا لقرشي على حبشي إلا بالتقوى..) أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما.

وهو القائل: (.. يا معشر قريش اشتروا أنفسكم. لا أغنى عنكم من الله شيئاً. ويا بنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئاً. يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالى. لا أغنى عنك من الله شيئاً..) أخرجه مسلم فى صحيحه.

وهو القائل ﷺ فى حجة الوداع: (.. أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب إن أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس العربى على عجمي ولا لعجمي على عربى ولا لأحمر على أبيض فضل إلا بالتقوى..) أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما.

وهذه الديمقراطية الإسلامية لم تكن نباتاً فى الجاهلية ورثه الإسلام منها لأن الديمقراطية لم يكن لها وجود فى الجاهلية. كما لم تكن الديمقراطية الإسلامية كذلك نباتاً منقولاً من تربة أجنبية لأن الديمقراطية الإسلامية ديمقراطية حقوق تلازم الإنسان وما نبت قبلها من الديمقراطيات فهو على أحسنه خطط عملية تملئها الضرورة على حسب الحاجة إليها، وليس هناك إنسان يحق له أن يطلب هذا الحق إذا فقد القدرة عليه، لأن هذا الإنسان صاحب الحق فى الديمقراطية باعتباره إنساناً مساوياً لسائر أبناء آدم وحواء لم يكن له وجود مفهوم قبل الدعوة الإسلامية والرسالة المحمدية.

لقد كان بحق الإيمان بالله والواحد الأحد رب العالمين وحق الإنسان... كلاهما معجزة إلهية تجلت بها قدرة الله على غير مثال سابق يتسلسل من أسبابه فى بيئته ولا حتى فيما جاورها من البيئات. فلقد نشأت الدعوة الإسلامية فى بيئة مريضة بأدواء العصبية وضرور الضلال فى اختلاط من العبادات والخرافات، فلو جرت الأسباب التى ندركها فى مجراها المعهود فالدعوة التى تأتى من قبل هذه البيئة لا يمكن أن تدعو أبداً إلى إله واحد يتساوى لديه جميع الناس، ولا أن تمنح الإنسان حقاً واحداً يتساوى فيه جميع الناس.. ولكن الإسلام فى الرسالة المحمدية جاء بهذا وذلك: جاء بالدعوة إلى الإله الواحد الأحد رب العالمين، وإلى الحق الذى يتساوى فيه كل أبناء آدم وحواء، وكلتا المعجزتين صادرة من ينبوع واحد. فمن آمن برب العالمين لم يؤمن برب فريق دون

إلى أعلى فأعلى وإلى أكمل فأكمل. فلا تبقى له من علاقة بين نوعه من أبناء آدم وحواء أو بالكون الذي يحتويه إلا ارتفعت بمقدار ما ارتفع عنده من حق ومن قيمة.

ومن عظمة الإسلام أن أوجب على الإنسان ألا يحرم نفسه من حقها في الاستمتاع بالحياة وطيباتها ومحاسنها بوسطية رائعة لا يجور فيها حق الضمير على حق الاستمتاع بالحياة فهو مأمور بالسعى الدؤوب والعمل والاستمتاع بما يكسبه حلالاً بسعيه وعمله من نعمتها.. وأمره بذلك كأمره برعاية حقه من العدل والحرية والكرامة..

قال تعالى: ﴿... يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَلًا طَيِّبًا ۗ﴾ [سورة البقرة].

وقال سبحانه: ﴿... يَبْنِيْءَ آدَمَ حُدُوًّا زَيْنَتَكَرَّ عِنْدَكَ مَسْجِدٌ وَكُلُّوا وَأَشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ

السُّرِفِينَ ۗ﴾ [سورة الأعراف].

وقال جل وعلا: ﴿... يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ۗ﴾ [سورة

البقرة].

ولا ريب في أن الأمر بحق الحياة والاستمتاع بطيباتها يتفرد به أيضاً الإسلام لأن الإنسان لم يتعود في تاريخ الإنسان من أي دين غيره أن يأمره بهذا الحق، وإنما تعود من أديان كثيرة أن تنهيه عنه، وأن تجعل زهده في الأرض شرطاً لخطوته في السماء.

وغير خاف أن هناك بعض المفاهيم أثارها بعض المستشرقين والعلمانيين وخصوم الإسلام في زماننا التي يجب تصحيحها مثل مفهوم الدين والدولة في الإسلام فالبعض من هؤلاء يتصور أن هناك خلافاً دائماً بينهما إما عن سوء فهم أو حقد دفين استحوذ على عقله ويتصور أن الحكومة على عهد رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين.. كانت حكومة إلهية معصومة من الخطأ أو حكومة مقدسة، وأن الإمام بدوره يحكم نيابة عن الله في الأرض، وأن له وحده حق التحليل والتحرير أو حق تفسير نصوص القرآن.

ونقول رداً على ذلك وتصحيحاً له بأنه فيما يتعلق بحق تفسير نصوص القرآن وما يرتبه من تحليل وتحريم فترة نزول الوحي على الرسول ﷺ، فلا جدال أن هذا حق لا يماريه فيه أحد كونه رسول يوحى إليه من قبل رب العالمين لهداية الإنسانية جمعاء. أما فيما عدا هذا فالمتتبع لحياه ﷺ الخاصة والعامة يجد أنه كان أكثر الناس مشاورة لمن معه من الصحابة امتثالاً لأمر الله له في قوله عز وجل:

﴿... وَسَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ ۗ﴾ [سورة آل عمران].

وقوله جل شأنه: ﴿وَأْمُرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الشورى].

كما كان يكلف نفسه ﷺ بما يكلف به أصغر رجل من أتباعه وهذه صورة من المشاركة وعدم التمييز حرص عليها لتكون قدوة لكل حاكم أو ذى سلطة، فقد كان المسلمون فى سفر وطلب ﷺ من أصحابه إعداد الطعام فقال أحدهم يا رسول الله على ذبحها، وقال آخر على سلخها. وقال آخر على طبخها فقال عليه الصلاة والسلام:

(.. وعلى جمع الحطب..) فقالوا: يا رسول الله: نكفيك العمل. قال ﷺ:

(.. علمت أنكم تكفوننى، ولكن أكره أن أتميز عليكم. إن الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه..).

أما فيما يتعلق بما بعد فترة الوحي وانقطاعه بوفاة الرسول ﷺ فإن مفهوم المستشرقين والعلمانيين عن الدين والدولة فى الإسلام مفهوم خاطئ يرفضه مبدأ الاجتهاد فى الإسلام الذى يحول دون العصمة فى الرأى ويحفظ على الإنسان المسلم مستواه كبشر فى الخطأ والصواب، والنصوص الصريحة فى هذا كثيرة منها:

قول الحق تبارك وتعالى عن الرسول ﷺ: (.. قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى..)

فالرسول معصوم ولا ينطق عن الهوى لما يوحى إليه من قبل الحق تبارك وتعالى إليه.

أما بعد انقطاع الوحي ووفاة الرسول ﷺ فلا عصم بقول الرسول ﷺ:

(.. كل ابن آدم خطاء، وخير الخطاء بين التوابون..) أخرجه البخارى ومسلم فى

صحيحهما.

وقد ترتب على ذلك وفهما وإدراكاً له وتأكيداً عليه قول أبى بكر الصديق رضى الله عنه وهو أول خليفة للمسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ: (.. إنى وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى..).

لذا فإن أى حكومة أو سلطة فى الإسلام لا تخرج عن دائرة الاجتهاد تدور بين الخطأ والصواب فى ممارستها لدورها فلا توجد فى الإسلام حكومة إلهية فليس فى الإسلام رفعاً لإنسان فوق مستواه الإنسانى وإنما يعرف إنساناً يصيب ويخطئ فى تقديره ورأيه وعلمه، وكلنا يعرف أن امرأة مسلمة ردت على عمر بن الخطاب رضى الله عنه إبان خلافته ووجهته وقبل منها هذا التوجيه.

لذا لا توجد سلطتان فى الإسلام إحداهما سلطة رجال الدين والكهنوت تقيم من نفسها هيئة للمراقبة والإشراف والسيطرة والأخرى سلطة الدولة بهيئاتها ومؤسساتها المختلفة،

فالحكومة في الإسلام حكومة إنسانية مدنية تعتمد في دواوينها على المخططين والعلماء والمتخصصين من المسلمين وغيرهم في كل جوانب الحياة مثلها مثل الحكومات الديمقراطية في العالم.

كما أن الأمة في الإسلام هي مصدر لجميع السلطات ومرجعاً لجميع المسؤوليات إذا فهم الإسلام على صحيحه فلا مصدر للسلطة العامة في الإسلام غير الأمة، ولا مرجع فيه للمسئولية العامة غير الأمة، ولا تعارض بين هذا وبين نصوص القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ . فإن النصوص والسنن لا تقوم بذاتها، بل تقوم بمن يفهمها ويعلمها ويعمل بها ويؤديها على الوجه المرجو وكل ذلك تشمله الأمة بما انطوت عليه في خاصتها وعامتها.. ففى التي تأتمر بما لا يخالف الكتاب والسنة وهي المسئولة عن صوابها وخطئها حيث مرت به واتفقت عليه أو اختلفت فيه.

وأول ما تقرر من ذلك الحق كان في حياة النبي ﷺ .. كما تمت الإشارة إليه من قبل . فإنه كان مأموراً من الله عز وجل بمشاورة أمته، ليرسى فيها الشورى سواء في حياته أو بعدها، وكان الأمر بينهم شورى في كل شأن من الشئون غير التبليغ الذي خصه العلي القدير به والذي لولاه لما كانت الدعوة إلى هذا الدين ولما قبض ﷺ إلى الرفيق الأعلى كانت ولاية الأمر بعد لمن توليه الأمة وتبايعه على الخلافة.. ولقد تولى من تولاه من الخلفاء الراشدين بالبيعة العامة، ولم يدع أحد بعدهم حقاً في الولاية بغير هذه البيعة ولا يوجد في الإسلام حق بغير تبعة.. فحق الأمة وتبعتها في الإسلام متكافئان متساويان فحقها تام وتبعتها تامة حقها تام لا يصدها عنه ذو سلطان بغير رضاها، وتبعتها تامة لا يعفيها من جرائمها عذر من الأعداء فهي متكافئة متضامنة في حقوقها وتبعاتها لأنها متكافئة متضامنة فيما حقوقها وتبعاتها لأنها متكافئة متضامنة فيما يصيبها من عواقب أعمالها.. قال تعالى:

﴿... وَأَتَقُوا فِتْنَةَ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [سورة الأنفال].

فلا عذر لها في ضلال تنساق إليه متابعة لأخبارها وكبرائها، فإن اللائمة تعود عليها في ذلك كله كما عادت على الذين من قبلها.

قال جل وعلا: ﴿... وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنبَغُ مَا أَفَلَيْنَا عَلَيْهِ ءِآيَاتٌ أَ أَلَوْ كَانُوا عَابِكُمْ وَأَنْتُمْ لَا يَعْقِلُونَ سَيِّئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [سورة البقرة].

وقال عز وجل: ﴿...قَالَهُمْ اللَّهُ أَنْ يُؤَفِّكَوْنَ ﴿٣٠﴾ أَخَذُوا أَخْبَارَهُمْ
وَرَهَّبْنَاهُمْ أَزْكَابًا مِنْ ذُرِّيَةِ اللَّهِ ﴿٣١﴾﴾ [سورة التوبة].

فلقد ألقى الإسلام الأمة من طغيان الكهانة وفتح أمامها منارة للفكر الإنساني لم تكن مفتوحة من قبله فجعل النصيحة حقاً لكل قادر على النصح من أولى الفهم والدراية وجعل العلم وظيفه عامة يطلبها من يشاء ويتولاها من يشاء، ولا سلطان له على الناس غير سلطان القدوة الحسنة والإقناع بالحجة والبينة الصادقة وهو المسئول إن خان هذه الأمانة، والمستمعون له هم المسئولون إن سمعوا فلم يستجيبوا لندائها.. قال تبارك وتعالى: ﴿...وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴿١٠٤﴾﴾ [سورة آل عمران].

وقال عز وجل: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [سورة المائدة].

وإن كلمة "المنكر" وحدها لكافية من الدلالة على هذه الفريضة العامة.. فإنها من الإنكار الذي يشيع كثيراً بين الناس فلا يجرى بينهم أمر من الأمور المنكرة إلا أنكروه ولم يتعارفوا عليه.. أما إذا اصطلحوا على المنكر وجهلوا الأمر بالمعروف فتلك هي المصيبة الكبرى وتلك أيضاً جريرتهم يحاسبون عليها ما دام كان في إمكانهم أن يتجنبوها.. أى أنه لا ظلم ولا حيف في هذه المسئوليات بين الأمم.. بل الظلم والحيف بعينهما أن يتساوى الصالحون والطالحون والعارفون والجاهلون.

ولا ريب أن هذه المسئوليات التامة المتناسقة بين طوائف الأمة وطبقاتها تملئها شرعية تامة متناسقة في عقائدها وتكالييفها، ولولا هذا التناسق في الدين الإسلامى لكان اضطلاع الأمة بمسئولياتها العامة من النقائص التى لا تعقل فى منطق الواقع، لأنها تسوم الناس من جانب ما تبطله من الجانب الآخر.. إذ لا يحل فى قسطاس العدل أن تكون الأمة مصدرًا لجميع السلطات إلا إذا كانت مع هذا مرجعاً لجميع التبعات والمسئوليات.

وإذا كان هناك اتفاق على أن الحاكم فى الأمة الإسلامية يكون بمبايعة أهل الحل والعقد له، وهو ما يقابل الهيئات البرلمانية والتشريعية المنتخبة.. وأنه وكيل الأمة وأنهم هم الذين يولونه سلطاته وأنهم يملكون خلعهم وعزله.. إذا ما ثبتت عدم كفاءته لما يظلم به من مسئوليات.

إلا أن الإسلام لم يفرض أساليب وإجراءات محددة لانتخاب الأمة لن سيتولون أمورها تاركًا إياها لما يتناسب مع مقتضيات كل عصر وما يتفق معه من أساليب في تحقيق ذلك.. لذا فإن ديمقراطية الإسلام تسع كل الأساليب العلمية الحديثة سواء المتبوعة من الأمة الإسلامية أو الديمقراطيات الأخرى في هذا الخصوص.

يقول المستشرق والكاتب الإنجليزي السير سي. بي. راي:

(.. الإسلام أكثر الأديان ديمقراطية، فإنه المساوي للإنسانية، وإنك لو كنت وضيعًا واعتنقت الإسلام لارتفعت حالًا إلى مستوى أى مسلم آخر - وفى المسجد يصلى السلطان والأمير والشحاذ والعامل جنبًا إلى جنب - كما أن الإسلام لا يعرف معنى التمييز باللون، وإن الإسلام بطريقته المثلى استطاع التقدم من حدود المحيط الباسيفيكي إلى حدود المحيط الأطلنطي، وبعد هذا سار الإسلام بخطوات واسعة فى شبه جزيرة الملايو، ليس بسبب وجود السيف، ولكن بسبب سياسته الطيبة الحرة..).

ويقول الكاتب العالمى الكبير برناردشو:

(.. الإسلام دين الديمقراطية وحرية الفكر، ودين البيع والشراء، وفوق ذلك فهو

دين العقلاء..).

ويقول:

(.. ليس فيما أعرف من الأديان نظام اجتماعى صالح، كالنظام الذى يقوم على القوانين والتعاليم الإسلامية..).

ويقول:

(.. لقد وضعت دائمًا دين محمد ﷺ فى موضع الاعتبار السامى بسبب حيويته المدهشة فهو الدين الوحيد الذين يلوح غلى أنه حائز أهلية الهضم لأطوار الحياة المختلفة، بحيث يستطيع أن يكون جذابًا لكل جيل من الناس، ولقد تنبأت بأن دين محمد ﷺ سيكون مقبولاً لدى أوروبا غدًا، وقد بدا كونه مقبولاً لديها اليوم..).

ويقول أيضًا:

(.. إن عدد المسلمين فى العالم لا بد أن يزيد على عدد أتباع أى ديانة أخرى..).

ولا يفوتنا فى ختام هذه الكلمة عن الشورى والديمقراطية فى الإسلام وحقوق الأمة أن ننبه إلى أن كتاب الله عز وجل "القرآن الكريم" .. يعنى بكلمة الأمة أن الخطاب الإلهي موجه إلى الأمم عامة والإنسانية جمعاء ولا تحجب عنه أمة..

قال جل وعلا: ﴿..وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ﴾ [سورة آل عمران].

كما أن الشورى والديمقراطية في الإسلام إذا كانت تنتهى بفرض إرادة الأمة إلا أنها لا ينبغي لها بأى حال من الأحوال أن تعلق إرادتها على إرادة الله عز وجل بإحلال ما حرمه أو تحريم ما أحله سبحانه وتعالى أو الخروج عن دائرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فلا يجوز لها بأى حال من الأحوال أن تتفق إرادتها على سبيل المثال على إباحة الشذوذ الجنسى أو الإباحة الجنسية، كما أخذت بذلك بعض ديمقراطيات الغرب بحجة احترام حق الإنسان فى الحرية الشخصية، كما لا ينبغي أن يكون المنتخبين الممثلين لإرادة الأمة من الجهلاء أو سيئ السمعة والسلوك، بل ينبغي أن يكونوا من خير متعلميها ومفكرها وشرفائها ومثقفها - تطبيقاً لقول الله تبارك وتعالى:

﴿..قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الزمر].

كما لا يفوتنا أيضاً التأكيد على أنه لا يحسب على الإسلام بأن المسلمين لم يحفظوا حقوقهم ولم يظلموا بتبعتهم وإنما قد يحسب عليه أنهم حفظوا الحق ثم ندموا على حفضة واضطلوا تبعاته ثم ندموا على الاضطلاع بها، أو قد يحسب عليه أنهم قد ضيعوا الحق فلم يصبهم بلاء من تضييعهم إياه.. ولكن الثابت يقينياً حتى لدى أعتى خصوم الإسلام أنه عبر التاريخ الإسلامى كله لم يحدث من المسلمين ما جعلهم يندمون على اعتناقهم لهذا الدين الحنيف.. ولكن قد حدث منهم مراراً ما يدعوهم إلى الخزى والندم على التفريط فى أوامر هذا الدين القيم ونواهيه.

وسبحان من أنزل هذا الكلام فى محكم آياته:

﴿..ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [سورة آل عمران].

٤ - حض الإسلام على العلم واحتضانه له:

من المعروف أن من العلوم التى أسبغ الله معرفتها على الإنسان ما يدرك بالخير الصادق، ومنها ما يدرك بالحواس ومنها ما يدرك بالوجدان، ومنها ما يدرك بالعقل عن طريق التجربة أو الاستنباط - ولقد عانق الإسلام العلم فى أول آيات نزلت بالقرآن الكريم إذ خاطب الله عز وجل الرسول ﷺ قائلاً:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ

الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾ [سورة العلق].

والتعليم بالقلم فى الآيات مطلق غير مقيد بنوع خاص من أنواع هذه العلوم، وتشريعاً للعلم أقسم الله بالقلم وما يسطر من العلم والمعرفة قائلاً سبحانه وتعالى:

﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [سورة القلم].

وطلب من رسوله أن يضرع إليه داعياً إياه سبحانه وتعالى أن يزيده علماً ومعرفة كما جاء فى آية سورة طه: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه].

وأضفى الله تبارك وتعالى على العلماء تشريعاً عظيماً إذ جعلهم متساوين مع الملائكة فى الشهادة المثلى بوحدانيته كما جاء فى آية سورة آل عمران:

﴿.. شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ [سورة آل عمران].

ومما يعلى العلم ويرفعه ما جاء فى أوائل سورة البقرة من حوار بين الله عز وجل وملائكته فى جعله آدم عليه السلام خليفة فى الأرض يعمرها، فقالوا له متعجبين:

﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَن يُقْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [سورة البقرة].

فإن من شأنه الإفساد وإراقة الدماء لا يصلح لتعمير الأرض، ونحن أحق وأولى منه بالاستخلاف، فقال لهم المولى عز وجل: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة].

يحط به علمكم. ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [سورة البقرة]. فمعجزت الملائكة - فقال عز وجل لآدم حينئذ: ﴿أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [سورة البقرة]. وأنبأهم بها، فقال الله لهم: ﴿أَسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [سورة البقرة].

أى سجدوا لتعظيم لإعجاز خلقه ﴿فَسَجَدُوا﴾ [سورة البقرة]. وفى ذلك تشريف للعلم لا يماثله تشريف، إذ أن الله تبارك وتعالى بأمره الملائكة وهى المخلوقات النورانية السماوية التى تسبح دائماً بحمده، أن تسجد لآدم جعل بذلك منزلة علمه بالأسماء فوق منزلة تسبيح الملائكة وتقديسهم له، وهو إكبار للعلم لا يدانيه إكبار - وعلى هداة كبر الرسول فى

أحاديثه أن العلم من عبادة الله وأن العالم أرفع من العابد، ومن أحاديثه الشهيرة:

(.. فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب..) أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحهما عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما.

ورغب مراراً فى طلب العلم، وقال:

”إنه فريضة على كل مسلم، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم”.

وجاءه رجل من قبيلة مراد وهو فى المسجد، فقال له يا رسول الله إنى جئت أطلب

العلم فقال ﷺ:

(.. مرحباً بطالب العلم. إن طالب العلم لتحف به الملائكة وتقله بأجنحتها..) رواه أحمد في مسنده.

كما جعل العلماء فوق العباد جعلهم فوق الشهداء في سبيل الله قائلًا ﷺ :

(.. للعلماء على الشهداء فضل درجة..) رواه أحمد في مسنده - عن أبي هريرة.

كما نرى الله عز وجل في سورة التوبة بعد أن يحض المسلمين على النفر مع الرسول ﷺ لجهاد أعداء الإسلام يحضهم على النفر إلى رسوله ليتعلموا على يديه تفسير القرآن وسنته وأوامر الشريعة ونواهيها، ويعلموا ذلك كله لقبائلهم وأقوامهم. يقول تبارك وتعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَأَنَّ أَفْئِدَةً يَخْرُجُ مِنْ كُلِّ فَرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [سورة التوبة].

وهو استنفار إلهي عظيم لتعليم شريعة الإسلام وعلومه ونشرها في الأمة. وفعلا استجاب المسلمون لهذا النداء الإلهي وأصبحت المدينة دار علم كبرى هيأت لحركة علمية واسعة كان أستاذها ومعلمها فقيه الأمة الأكبر ومفسر قرآنها العظيم الرسول المصطفى ﷺ وتلاميذها صحابته.

ولم يعانق الإسلام العلم واحتضنه فحسب بل اتحد معه مكوناً علوم التفسير والحديث والفقه. ومن المعروف أن الشريعة الإسلامية في القرآن والسنة تتسع سعة كبيرة فلا تقف عند العبادات بل تشمل جميع جوانب الحياة للبشر وأضعة لها القوانين في نظام الأسرة، وبر الوالدين، والزواج، والعلاقة بين الزوجين، وعدة الزوجة المطلقة ونفقتها فيها ونفقة الموضع، وأنصبة الوارثين والوارثات، والتجارة والبيع والشراء، والزراعة واستثمارها، والدِّين وما ينبغي له من التوثيق والأشهاد والرهن والائتمان، ومصاريف الزكاة، وتحريم السرقة والقتل، والربا، والزنا، والخمر، والميسر، وأحكام الحرب والجهاد، وحقوق المحاربين، والمعاهدات، وقيام الحكم على الشورى والعدل، مع مبادئ خلقية وتهذيبية رفيعة.

والقرآن الكريم بجانب العلوم الدينية ينوه بالعلوم الطبيعية، والعلوم الفلكية، والرياضية، والعلوم الطبية ويكثر الله جل وعلا من الإشارة إلى العلوم. وما أنعم الله به على الإنسان من بسطه الأرض له وجعله فيها جبالا حتى لا تميد به وأنهار جارياً أنزل لها الماء من السماء ليرتوي منه الناس، ويستخدموه في زرعهم التي تنتج الحبوب وأشجارهم التي

تنتج كل الثمرات والفواكه من كل صنف بهيج مع ما بث فيها من الحيوانات وتذليله الإبل والخيل والدواب للإنسان، وتسخير البحر له لركوبه، وما يجرى فيه من السفن لتجارته ونفعه، مع ما يطير في السماء من طير على كل لون. وما من عالم من عوالم الطبيعة إلا وذكر في القرآن: ذكر عالم الأرض بجبالها، وعالم البحار، وعالم الطير، وعالم النبات، وعالم الأشجار، وعالم الحيوان والدواب.. وإذا تركنا العلوم الطبيعية إلى العلوم الفلكية والرياضية، وجدنا الله جل وعلا يذكر مراراً بروج الشمس، والبروج جمع برج وهو الحصن والمنزل العالى، وهى منازل للشمس، تتجمع فيها نجوم لو وصل بينها بخيوط لخرج منها غالباً ما يشبه صورة حيوان، والشمس تحل شهرياً فى منزل ثم تنتقل إلى منزل آخر، بحيث يصبح لها اثنا عشر منزلاً بعدد شهور السنة، ثلاثة منها بروج الشتاء، وهى الجدى، والدلو، والحوت وثلاثة منها هى بروج الربيع وهى الحمل، والثور، والجوزاء، وثلاثة بروج الصيف وهى: السرطان، والأسد، والسنبلة، وبروج الخريف الثلاثة وهى الميزان والعقرب والقوس، والله ذكرها فى مثل قوله سبحانه وتعالى:

﴿.. وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١﴾ [سورة البروج].

للدلالة على عظيم ولا نهائية قدرته، ويقول جل وعلا فى سورة يونس:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ ۝٥﴾

[سورة يونس].

والضياء هو النور الساطع. ومنازل القمر: هى مواضعه التى يظهر بها فى كل ليلة من ليالى الشهر، وهى ثمانية وعشرون منزلاً، مقسمة على بروج الشمس، وأسماؤها الثمانية والعشرون المذكورة فى كتب علماء الفلك مثل: السماك الأعزل، سعد الذابح، سعد السعود، الشرطان.. إلى غير ذلك.

ويقول سبحانه وتعالى فى سورة الأنعام: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۝١٦﴾ أى أنه قدرهما منازل لتعلم الأوقات من الأيام والليالى، والشهور والسنين، لمعرفة معاشنا وضبط أمورنا ومعاملتنا وما نريد من التاريخ - وهو أصل ممن أصول ازدهار الحياة والحضارة.

وفى القرآن الكريم إشارات مختلفة إلى العلوم الطبية مما جعل مؤتمرات طبية متعددة تتعقد لبيان ما فيه من إشارات ومعجزات طبية، من ذلك ما جاء فى سورة "المؤمنون" فى أطوار خلق الجنين فى بطن أمه. والله سبحانه وتعالى ينبهنا فى أول الآيات أن الإنسان

مخلوق ﴿ مِنْ سُلَٰلَةِ رَبِّنَا طِينٍ ﴾ ﴿١٢﴾ [سورة المؤمنون] مشيراً بذلك إلى خلقه لآدم من طين ثم يعرض أطوار خلقه للجنين قائلاً: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾ ﴿١٣﴾ [سورة المؤمنون] فى رحم أمه ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ ﴿١٤﴾ [سورة المؤمنون] وهى ردم غليظ ﴿ فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ ﴿١٥﴾ [سورة مؤمنون] وهى القطعة من اللحم ﴿ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا ﴾ ﴿١٦﴾ [سورة المؤمنون] أى عظام تتكون داخلها ﴿ فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ ﴿١٧﴾ [سورة المؤمنون]. إذ نفخنا فيه الروح.

وهى معجزة طبية ربانية فى القرآن الكريم تصور الأطوار المختلفة للجنين حتى يتخلق كائنًا حيا وهو ما لم يعرفه العالم أو يكتشفه العلم إلا حديثًا منذ بضعة عقود.

وقد كان من تنويه القرآن الكريم بالعلوم الطبيعية والفلكية والطبية مع اتحاده بالعلم فى العلوم الدينية أكبر الأثر فى ملأ قلوب المسلمين شغفًا بالعلم فى مختلف أنواعه، وما إن انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى حتى أكتب المسلمون على دراسة العلوم الدينية: علم التفسير، وعلم الحديث "السنة"، وعلم الفقه، وأخذوا يجاهدون أثناء وبعد الفتوح الإسلامية فى التعرف على ما لدى الأمم المستعربة من علوم الكيمياء والفلك والرياضيات والطب، ولم تلبث أن قامت حركة كبرى من الترجمة لتلك العلوم ساعد على ازدهارها عقلانية الإسلام وحضه على التعايش السلمى والفكرى بين الأمم والشعوب وترتيباً على ذلك تم وضع النحو وعلوم اللغة استجابة للشعوب المستعربة التى أحست الحاجة الشديدة لمعرفة أوضاع العربية فى الأعراب والتصريف للكلمات.. وأخذت حركات تعليمية كبرى تنهض نهضة واسعة فى العلوم الدينية والعلوم اللغوية والعلوم الأجنبية.. ولم يلبث المسلمون أن قادوا العالم علمياً وحضارياً لمدة ستة قرون حتى القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى.

ولقد كان المسلمون يكبون على الكتب والعلوم فى عصورهم الأولى إنكبابا لم يعرف لأمة من الأمم بفضل القرآن والسنة وحثهما الشديد للمسلمين على التعليم، حتى لتعتبر الأمة الإسلامية أمة العلم، فقد شغف به جميع أفرادها وتجرد منهم كثيرون يريدون أن يجوزوا الأدب والعلم لأنفسهم، وكثير منهم منذ القرن الثالث الهجرى يؤلف حشداً من الكتب مثل الجاحظ الذى ألف من الكتب العظام وعشرات الرسائل مما يعد مكتبة كبيرة، وكان محمد بن جرير الطبرى صاحب التفسير والتاريخ الضخمين لا يخلى يوماً من كتابة

عدد من الصفحات قرره على نفسه، كأنه فريضة يكتب في كل يوم أربعين ورقة، ولذلك لا تعجب أن نجد محمد بن زكريا الرازي معاصره المتوفى في سنة ٣٢٠هـ يخلف ٥٦ كتاباً في الطب و ٤٤ كتاباً في الطبيعيات وعشرة كتب في الرياضيات و ١٧ كتاب في الفلسفة وثمانية في المنطق و ٢٣ في الكيمياء، ومن أعظم كتبه الحاوي وهو دائرة معارف طبية وله كتاب في الطب الروحاني وكان يقابله في الأندلس الزهراوي وله موسوعة طبية كبيرة في ثلاثين مجلداً.. وناهيك بأعمال ابن سينا الذين تعد مؤلفاته ورسائله بالمئات، وظل كتابه "القانون في الطب" وموسوعة الزهراوي، وكتب الرازي تدرس جميعاً في الجامعات الأوروبية من القرن الثالث عشر للميلاد إلى القرن السابع عشر.

ويلاحظ أن هناك ظاهرة مهمة اقترنت بالعلم منذ نشأته في العصور الأولى من الإسلام وهي أنه لم يكن مقصوراً على طبقات خاصة.. بل كان دائماً عاماً لكل طبقات الناس، إذ كان مطروحاً باستمرار في حلقات الشيوخ بالمساجد، وفيما نشأ بها مكتبات.. ومنذ أواخر القرن الثاني الهجري تنشأ المكتبات العامة في كل بلد إسلامي وتنشأ معها دكاكين الوراقين ولا مصاريف تطلب للتعليم، فالتعليم مجاناً من حق الجميع، والطبقات الشعبية تشارك فيه بحظوظ كثيرة، ودليل ذلك أن من يرجع إلى تراجم العلماء والأدباء سيجد أكثرهم من أبناء الطبقة العامة، وتصور ذلك ألقابهم مثل الحداد، والخراز والبرزاز والقواريري والقواس، والنبال والعمار والمطرز، والطرزي، ونجد بين علماء الكلام أبا أحمد التمار وشعيب التلال، ونشأ أبو نواس غلاماً لعمار، ونشأ أبو العتاهية يبيع الخبز والجرار حاملاً لها على ظهره في شوارع الكوفة، ونشأ الجاحظ يبيع الخبز والسمك بسيحان أحد نهيرات البصرة.. وهناك من النصوص ما يشهد بأن كثيراً من العامة كانوا ينالون حظوظاً مختلفة من الثقافة، ولم يكن يحول بينهم وبينها أي حجاب إذ كانوا يروحون إليها ويغدون في المساجد ومكتباتها ودكاكين الوراقين.. ومما يدل على ذلك أن نرى الجاحظ في القرن الثالث الهجري يقول: (.. وسألت بعض العطارين من أصحاب المعتزلة..)" وكان العطارين حينئذ كانوا أقساماً منهم من يتبع المعتزلة ومنهم من يتبع غيرهم من أصحاب المذاهب، ولا بد أن كان مثلهم بقية التجار وأصحاب الحرف، فهم يناصرون هذا المذهب أو ذلك أو هذا الأستاذ أو ذاك، ولكل أستاذ أتباعه لا من أوساط المثقفين فحسب بل له أنصاره أيضاً من العامة.

ومع معانقة الإسلام للعمل في العصور الأولى للإسلام كان المتعلمون في أوروبا يقلون قلة شديدة إذا لم تكن الكتب تعرف عندهم إلا في الأديرة، بينما كانت عند المسلمين

مطروحة في المساجد والمكتبات العامة ودكاكين الوراقين، وأخذت تنتشر المدارس عند المسلمين منذ القرن الرابع الهجري يبيثها السراة الذين كانوا يعدون أنفسهم حماة للعلم، وأخذ نظام الملك وزير السلجوقيين ينشئ في كل بلد عراقي أو إيراني مدرسة أشبه بجامعة.. إذ كان بها كل فروع العلم وألحقت بها مساكن للأساتذة والطلبة، ورسدت لهم رواتب لعاشهم جميعاً.. وعمت هذه المدارس في العالم العربي والإسلامي وأخذ ينشأ في العلم سباق هائل بين العلماء في كل بلد إذ كانت تعم في الأمة وحدة علمية شرقاً وغرباً.. وكانت جوامع كبرى قد نشأت في العالم الإسلامي واستحالت إلى جامعات تعلم فيها العلوم الدينية واللغوية على يد أعلام أئمة في كل علم.. مثل جامع القرويين بقاس وجامع عتبة بالقيروان وجامع الزيتونة بتونس والمسجد الأموي بدمشق، والجامع الأزهر بالقاهرة، وقد كفل فيه للطلاب من كل بلد إسلامي - وحتى اليوم - المسكن والنفقة وهذه النهضة العلمية العالمية التي قاد فيها المسلمون العالم وحدهم طوال ستة قرون بغلوا فيها القمة في كل علم سواء في العلوم الدينية واللغوية، أو في علوم الأمم السابقة - بعد تطويرهم لها - من كيمياء وطبيعة ورياضيات وفلك وطب وهندسة.. ونفذوا مبكرين إلى إيجاد فلسفة إسلامية مزجوا فيها بين روح الإسلام والفلسفة اليونانية وتألقت لهم فيها على مر الزمن فلاسفة عظام.. وكل ذلك بفضل ما بث القرآن الكريم والحديث الشريف في قلوب المسلمين من شغف شديد بالعلم، لا يماثله شغف باعتبار أنه جزء لا يتجزأ من عقيدتهم الدينية.

واستيقظت أوروبا من سباتها الطويل في القرن الحادي عشر الميلادي على رؤية هذه النهضة العلمية الإسلامية الباهرة، وسرعان ما أخذ كثيرون من شبابها يطلبون معرفتها فرحلوا إلى مدن الأندلس يريدون التثقيف بعلمها، وتعلموا العربية، وتعلموا على يد علمائها، وأكبوا على ترجمة نfassاتها العلمية والفلسفية إلى اللاتينية لغتهم العلمية حينذاك في ديارهم.

يقول أدو بيلي في كتابه "العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي":

(.. ترجمت كل كتب العلماء العرب العظام - على وجه التقريب - إلى اللاتينية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر للميلاد.. وقد تدارسوها واستوعبوها وتمثلوها وأضاءت مسالكهم إلى نهضتهم العلمية الحديثة..).

ويقول المستشرق الفرنسي "أوجين يوغ" في كتابه "يقظة الإسلام والعرب":

(.. لا يمكننا فى أى حال أن نجزى العرب جزائهم الأوفى على خدماتهم للعلم والمدنية ، فإنهم الأساتذة الذين تلقينا عنهم شتى العلوم والفنون ، وأما نحن فقد كانت العلوم لدينا محصورة فى الأديرة والصوامع وفى نطاق ضيق جداً ، وعلاوة على ذلك فقد علمنا العرب دروساً فى التسامح والكرم فإنهم لم يرغبوا الشعوب على تغيير معتقدتهم الدينى ، كما كان المسلمون يحترمون جميع الأديان مهما ضعفت أو قل عدد معتنقيها..).

ويقول أيضاً :

(.. ولا يغرب عن البال أن من خصائص الدين الإسلامى السعى للسلم العالمى.. وأن من يمتزج بالمسلمين يتأكد أنهم يحملون قلوباً بيضاء سليمة من كل حقد وضغينة وهم يسعون إلى تأليف القلوب والأرواح ولو أن الغربيين درسوا القرآن لدوا أيديهم لمصافحة المسلمين بدلا من الجور عليهم ومعاداتهم..).

٥- وسطية الإسلام:

تعرف اللغة العربية "الوسيط" بأنه اسم لما بين طرفى الشئ ، وأن "أوسط الشئ" أفضله وخياره كوسط المرعى خير من طرفيه ، وواسطة القلادة هى الدرة التى فى وسطها وهى أنفس خرزها ، ويقال فلان من أوسط قومه أى خيارهم ، وفلان وسيط قومه.. أو وسيط فى قومه إذا كان أوسطهم نسباً وأرفعهم جداً.

وفى الحديث الشريف: (.. خيار الأمور أوساطها..) وأنه كان ﷺ من أوسط قومه أى من أشرفهم وأحسبهم.

ولقد ذكر الله تبارك وتعالى التوسط فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم مثل قوله عز وجل:

﴿.. وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [سورة الفرقان].

وقوله سبحانه :

﴿.. وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٩١﴾﴾ [سورة الإسراء].

وتنفرد الأمة الإسلامية بين جميع الأمم الإنسانية بأن الله عز وجل جعلها أمة وسطاً لتكون خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر... وسبحان من أنزل هذا الكلام:

﴿.. سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَن قَلْبِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِفُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِيَعْلَمَ مَن يَبْعِيَ الرَّسُولَ مِمَّن يَنْقَلِبُ عَلَى عَقَبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِعَ لِيُصْنِعَ لَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٣﴾﴾ [سورة البقرة].

ويلاحظ أن الآية الكريمة ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ تبدأ بـ ﴿وَكَذَلِكَ﴾ وهي تشبيه مما يدل على أنها مرتبطة بما قبلها في صفة من الصفات كما يلاحظ أن الآية ١٤٢ من [سورة البقرة] التي سبقتها تتعلق بتحويل القبلة من اتجاه المسجد الأقصى إلى بيت الله الحرام بمكة.. ﴿.. إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي لَبَّيْكَ بِهِ مَبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [سورة آل عمران].

بعد تطهيره من دنس الأصنام.. وعما سيقوله السفهاء في هذا الخصوص ولقد ثبت علمياً أن أوسط بقعة على وجه الأرض هي مكة المكرمة التي يتوسطها بيت الله الحرام فلو اعتبرنا الأرض دائرة تكون البقعة التي فيها بيت الله الحرام هو مركزها الذي أمرنا المولى عز وجل بالصلاة تجاهه، والطواف حوله داعين ومهللين ومرددين ”لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك، ولا شريك لك لبيك..

ومن المعروف علمياً أن القياس الصحيح لأي دائرة لا يكون إلا بتحديد مركزها ومنه يكون تصحيح الدائرة نفسها فكأن الولي تبارك وتعالى - والله أعلى وأعلم - يريد بوسطية الأمة الإسلامية أن تكون بعقيدتها هي المركز الذي ينطلق منه التصحيح والإكمال لكافة عقائد ومذاهب ما عداها من الأمم على دائرة الأرض.

وقد يلاحظ أيضاً أن الآية الكريمة ١٤٢ من سورة البقرة بدأت بـ ”سيقول السفهاء“ وهذا يعنى أن القول بعد نزول الآية الكريمة مستقبلاً.. وزمن مفتوح.. وهو ما حدث فعلاً بعد نزول الآية.. إذ تساءل المشركون والمنافقون واليهود عن علة هذا التحويل للقبلة.. متعافلين أن الأمر به كان من المولى عز وجل.

مما يستلزم واجب الطاعة بلا شك أو تردد أو جدل وهو الذي يحدث حتى الآن من تساؤلات كثيرة من بعض المستشرقين خصوم الإسلام عن علة هذا التحول.. مما يؤكد يقيناً على أن النبوءة المستقبلية عن قول السفهاء التي جاءت به الآية الكريمة كانت من لدن العليم الخبير.

والوسط هو خير الشيء وأفضله إذ يحمل نقطة التوازن التي يمكن منها القياس وتحديد المعايير المطلوبة والتصحيح والإصلاح ترتيباً على ذلك.. فعندما تكون أمة الإسلام وسطاً تكون عقيدتها وما كلفت به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو المقياس التي تقاس إليه وعليه أحوال الأمم وعقائدها لتصحيح ما انحرف فيها.

وهو ما حدث فعلاً فلقد كان الإيمان بالله الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد رب العالمين هو الأصل الذين يثوب إليه من ينحرف عن العقيدة في الإله ليجد فيه أكمل وأشرف وأصدق ما ينبغي أن يكون.

ومن ثم كانت العقيدة الإسلامية هي العقيدة الصحيحة المتممة لكل العقائد والمذاهب التي سبقتها أو كانت حولها منذ خلق آدم عليه السلام وحتى قيام الساعة.

- فهي عقيدة كاملة صححت أديان الهند وعقيدتها في الكارما والنرفانا التي فيها الإله مسلوب الذات لا تجاوب بينه وبين أبناء الحياة.

- وهي عقيدة كاملة صححت وتممت عقيدة العلم الأول بين فلاسفة الغرب التي بلغت أعلى ذروتها في مذهب أرسطو حيث كان على خطأ في فهم التجريد والتنزيه الذي ساقه إلى القول بكمال مطلق كالعدم المطلق في التجريد من العمل والتجريد من الإرادة والتجريد من الروح.

- وهي عقيدة كاملة صححت وتممت ما جاء في الديانات المصرية القديمة التي بلغت ذروتها في الاقتراب من التوحيد في ديانة آتون التي بشر بها الفرعون المنسوب إليه أختاتون.. فرغم أن أختاتون كان يصلى إلى خالق واحد إلا أن هناك شائبة من العبادة الوثنية علقته به من عبادة الشمس فكانت هذه الشمس الدنيوية رمزاً لإلهه ومرادفاً لاسمه في معظم الصلوات. وهو ما يرفضه الإسلام جملة وتفصيلاً في عقيدته فالإله الواحد الأحد في الإسلام ليس له نظير أو شبيهه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ولا ينبغي على الإطلاق الرمز له بمخلوق من مخلوقاته ﴿سُبْحٰنَهُ عَمَّا يُشْرِكُوْنَ﴾ ﴿٣١﴾ [سورة التوبة].

- وهي عقيدة كاملة صححت وتممت ما قبلها من العقائد والمذاهب الكتابية في مفهوم الإله بأن العبادة تكون لله الواحد الأحد رب العالمين.. ورب الأمم الإنسانية جمعاء بغير فارق بينها غير فارق الصلاح والإيمان.. فما هو برب شعب بعينه دون سواه ولكن ﴿.. نَبِّ اَتَلَمَّيْتِ﴾ ﴿٢٠﴾ [سورة الفاتحة].. الذي خلق الناس جميعاً ليتعارفوا فلا فضل بينهم لعربي

على أعجمى ولا لقرشى على حيشى إلا بالتقوى قال تعالى:
﴿... يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَكُمْ ۗ﴾ [سورة الحجرات].

إله واحد أحد عدل لا يأخذ إنساناً بذنب إنسان ولا يحاسب أمة خلقت بجريرة أمة سلفت ولا بدين العالم بغير نذير وهو العليم الخبير بأحوال عباده وسرائرهم. وسبحانه من أنزل هذا الكلام:

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿... وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ﴾ [سورة فاطر].
بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿... تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنتَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۗ﴾ [سورة البقرة].

﴿... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا ۗ﴾ [سورة الإسراء].
﴿... وَهُوَ يَكُلُّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۗ﴾ [سورة يس].
﴿... وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ﴾ [سورة الأعراف].
ودينه دين الرحمة والعدل تفتح كل سورة من كتابه المجيد ب (بسم الله الرحمن الرحيم) وهو عز من قائل:

﴿... وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ۗ﴾ [سورة فصلت].
والقائل سبحانه الذي وسعت رحمته كل شيء مخاطباً رسوله الصادق الأمين
﴿... وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ۗ﴾ [سورة الأنبياء].
إله منزه عن التشبيه وعن الشريك والولد مما تسرب من بقايا الوثنية إلى بعض الأديان والمذاهب الأخرى فهو القائل عز وجل في محكم آياته ﴿... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۗ﴾ [سورة الشورى].

والقائل سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحٰنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة التوبة].
والقائل جل وعلا: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ ١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ ٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ ٣ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ ٤﴾ [سورة الإخلاص].
فلا ريب أو جدال أن عقيدة الإيمان بالله الواحد الأحد رب العالمين والإيمان بأن لذاته جل وعلا هي غاية ما يتصوره العقل البشري من الكمال في أشرف الصفات التي جاء بها الإسلام هي المتممة لعقائد وأفكار كثيرة موزعة فيما عداه من أديان أو مذاهب فلسفية

تدور عليها حيث بلغت المثل الأعلى في صفات الذات الإلهية مصححة للضمائر والعقول في تقرير ما ينبغى لكمال الله سبحانه وتعالى بقسطاس الإيمان وقسطاس النظر والقياس.. وبديهي أن أمة تعتنق مثل هذه العقيدة ومكلفة بالدعوة إليها بين الأمم الإنسانية تكون شاهدة على هذه الأمم إذا ما بلغت الرسالة وأدت الأمانة.

قال تبارك وتعالى:

﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأَمِينِ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٨٨﴾ [سورة الأعراف].

وقال عز وجل:

﴿... قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ تَمَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَّامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْإِسْلَامُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١٦٤﴾ [سورة آل عمران].

ورغم أن المولى عز وجل قد حدد مكان الأمة الإسلامية بين الأمم في أنها أمة وسط مما يعنى أنها خير أمة بصحة وسلامة وكمال عقيدتها.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴿٣﴾ [سورة المائدة].

إلا أنه تبارك وتعالى ربط خيرية هذه الأمة بوسطيتها وكمال عقيدتها الإيمانية به عز وجل بشرطين لا بد لهذه الأمة من استيفائهما هما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴿١١٠﴾ [سورة آل عمران].

وهذا أمر بديهي تتطلبه لوازم عقيدة بهذه العظمة وهذا السمو، كما يتحتم منطقاً على أمة ينبغى عليها الدعوة إلى مثل هذه العقيدة السامية المصححة المتممة لعقائد الأمم الأخرى أن تؤدى ما عليها من تكاليف شرعية محققة غاياتها في تحقيق العدل والإحسان وإيتاء ندى القربى والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغى متحلية بما فرضه عليها الإسلام من أخلاقيات كبر الوالدين، وصلة الرحم، وكفالة اليتامي، وإفشاء السلام، وحسن الجوار، ومعاشرة الزوجة بالمعروف، والعدل، والأمانة، والصدق، والاعتدال، وعدم الغلو، والعفو والتسامح والصفح والإصلاح بين الناس... وملتزمة بما نهاها عنه الإسلام

وحرمه عليها كالنهى عن العقوق والقتل والنفاق والزنا والسرقة والإسراف والغش والخيانة والظلم والمن والغيبة والنميمة والرياء والبذاءة والسباب والعداوة والبغضاء.. وكل ما يتعلق بسوء الخلق الذى يفسد ما بين الناس ويفسد المجتمع فتضيع الحقوق وتضمحل القيم.. حتى تكون على صراط مستقيم وتكون دعوتها بين الأمم صادقة وتحقيق شروط شهادتها على هذه الأمم وبأنها دعوتها وهى على الصراط المستقيم فبداهة لا تقبل شهادة المعوج أو الضال أو المنحرف..

وإذا تأملنا هذه الآية الكريمة محل بحثنا:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ﴾ [سورة البقرة].

يتبادر إلى الذهن لأول وهلة أنه لابد أن يكون فى مقدمة الأمة المكلفة بعقيدتها تصحيح عقائد الأمم الإنسانية والشهادة عليها بتمام ذلك فقهاؤها وعلمائها، فهم بداية أول الشهداء.. فترى ماذا سيقولون أمام العلى القدير ورسوله الصادق الأمين فى هذا المشهد العظيم؟ وكلهم إلا النذر قليل القليل منهم لم تتجاوز رسالتهم ودعوتهم حدود أمتهم ولم يكلفوا أنفسهم عناء التوجه إلى هذه الأمم ومخاطبتها بلغاتها منتقين طيب الكلام من هذه اللغات سالكين منبج الحكمة والموعظة الحسنة فاشين السلام بينهم وبين هذه الأمم كما أمرهم به الإسلام شارحين لهم دعوهم إلى هذه العقيدة التى يستحيل على عاقل ردها إن تلمس حتى بعضاً من سموها وعظمتها وإدراك غاياتها.. يؤكد ذلك أنه فى زماننا هذا رغم محاولات التشويش على هذه العقيدة والصاق تهمة الإرهاب بها فإن الذين يقرأون عنها فى النذر اليسير فى الكتب التى تتحدث عن هذه الدعوة بلغاتهم يقبلون على اعتناقها.. والدفاع عنها أكثر من فقهاء وعلماء الأمة.

كما أنه غير خاف أن ما يثير القلق والخوف فى هذه القضية أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه سيكون شاهداً وباعتبار أنه ﷺ قد بلغ الرسالة على أكمل ما يكون البلاغ وأدى الأمانة خير ما يكون الأداء ونصح الأمة على أسمى ما يكون النصح تاركاً لها من لوازم الدعوة أكثر مما يكفى بكثير للقيام بها ونشرها بين كافة الأمم الإنسانية وبشهادة رب العالمين فى قوله جل وعلا:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۗ﴾ [سورة

المائدة].

فهو ﷺ حجة علينا فما عليه إلا البلاغ المبين وقد بلغ أمته ما حمل من أمانة وأصبح على الأمة ما حملت وبالتالي فإن شهادة الرسول ﷺ ستكون في هذا المشهد العظيم علينا وليست لنا (ويكون الرسول عليكم شهيداً) وقد يكون للعوام من المسلمين في هذا المشهد العظيم عذرهم - والله أعلى وأعلم - وهنا يتكرر التساؤل.. ماذا سيقول فقهاء الأمة وعلمائها في هذا المشهد العظيم؟ وما هي حججهم؟!

ما هي حججهم ولديهم من لوازم ومبررات الدعوة إلى عظمة وسمو وشمول هذا الدين القيم أكثر بكثير مما يكفى للأخذ بيد الإنسانية جمعاء إلى هذا الدين القيم ودخول الناس فيه أفواجاً إذا ما أحسن شرحها بلغة المدعوين إليها وأحسن اختيار الوقت الملائم لتوجيهها والقائمين على شرحها وتوجيهها.